# تاريخ ما بين السطور
## قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

رمضان مصطفى سليمان

# اعترافات القلب الممزق
# بين نور الإيمان وعتمة النفاق

بعد أن انقشع غبار معركة بدر ، وتهاوى صدى السيوف ، وسكنت الأرض التي ارتجفت تحت أقدام المؤمنين والكافرين ، لم تعد المدينة كما كانت. كان النصر الإسلامي حدثًا زلزاليًا في تاريخ الجزيرة العربية ، ليس لأنه غيّر موازين القوة وحدها ، بل لأنه أعاد تشكيل الضمائر ، وأعاد ترتيب القلوب ، وفضح المستور في الصدور. المدينة المنورة ، التي كانت بالأمس ساحة لتنازع القبائل ، وغابة للولاءات المتشابكة ، أضحت اليوم مهد أمة جديدة، أمة تتجاوز الدم والعرق والنسب ، لتؤسس انتماءها على الإيمان والعقيدة والعدل.

لم يبقَ في المدينة عاقلٌ إلا وأدرك أن هذا الدين ليس كغيره من الديانات ، وأن هذه الدعوة ليست طارئة ولا عابرة. تسارعت الخطى من كل فجّ ، وتدفقت الوفود من جهينة وبلي وضمرة ، أولئك الذين كانوا قد حالفوا رسول الله ﷺ وبقوا على دينهم ، فإذا بهم اليوم يقفون على أبواب المدينة وقفة التائبين العائدين من غربة طويلة ، معلنين دخولهم في دين الله أفواجًا ، وقد أيقنوا أن الإسلام ليس مجرد شعائر تُؤدّى ، بل منظومة حياة كاملة ، تنقذ الإنسان من التيه ، وتحرره من عبودية الحجر والبشر.

لكن المدينة، على سعة نورها الجديد ، لم تخلُ من زوايا مظلمة ، تسكنها نفوس غلاظ، قاسية ، قد أغلقت نوافذ قلوبها دون شمس الهداية. نفرٌ من أهلها آثروا أن يظلوا في ظل اليهود ، طابورًا خامسًا ، يمارسون أدوار الخسة والدناءة في صمتٍ مخاتل ، يبتسمون في وجوه المؤمنين ، ويطعنونهم في ظهورهم ، يلبسون ثوب الإسلام ظاهراً ، ويخفون تحت أكمامهم خناجر الغدر.

وفي أحد أزقة المدينة الضيقة ، حيث تتعانق الظلال مع الجدران الطينية ، وقف رجل طوال القامة ، مليح الوجه ، مشربًا بالحمرة ، يتكلم العربية بلكنة أعجمية واضحة. كانت عيناه الواسعتان تتأملان المشهد العام ، ترقبان حركة الناس ، وتلتقطان همسات القلوب قبل أن تنطق بها

الشفاه. لم يكن من أهل المدينة ، بل وافدًا عليها ، غريبًا في لغته ، قريبًا في وجدانه ، كأنما اختاره القدر ليكون شاهدًا على هذا التحول الكوني.

كان يسير ببطء ، يختلط بالناس حينًا ، وينفرد بنفسه حينًا آخر ، ثم يغيب في بحار أفكاره ، كأنه يغوص في أعماق الوجود ذاته ، يبحث عن معنى هذا الانقلاب الذي بدّل الوجوه والقلوب.

قال لنفسه ، وهو يتنهد في مرارة :

أعجب كيف تبلغ الخسة بالناس هذا الحدّ المحزن ؟ كيف يمكن لإنسان أن يرى النور ساطعًا أمامه ، ثم يختار العمى طوعًا ؟

توقف أمام دار فسيحة تتوسطها شجرة نخيل سامقة ، يعرف صاحبها جيدًا ؛ رجل من بني مخزوم ، حليف لليهود ، متبختر بثروته ونسبه ، يمشي في طرقات المدينة كأن الأرض قد فُرشت له وحده ، يرفع أنفه في كبرياء أجوف، لا يرد تحية ، ولا يلتفت إلى أحد بكلمة إلا إن كان ذا جاه أو مال ، أو من حلفائه بني النضير.

هذا الرجل، الذي طالما رآه الناس في ثياب الزعامة ، يعود إلى داره فيخلع عنه قناع العظمة ، ويجثو كالكلب تحت قدمي صنمه الأثير ، حجرٍ أصمّ ، لا يضر ولا ينفع ، يتوسل إليه ، ويمسح عليه بيدين ترتجفان من الذلة ، يناجيه ويحدثه ويرجوه ، ثم يقوم من هذا الدنس الروحي ليقع في دنس مثله ، فيعبّ من الخمر حتى يفقد وعيه ، ويسقط حيث اتفق ، لا يبالي أكان في حظيرة خنازير أم في فراش امرأته.

وكان له ولد ، فتى رقيق الطبع ، طيب القلب ، اسمه عبد الله. فتى نحيل الجسد ، واسع العينين ، يفيض وجهه صفاءً ، وكأن قلبه مرآة لم يمسسها صدأ الدنيا. كان هذا الفتى قد سبق أباه إلى الإسلام ، فصار بينهما جدار من العقيدة لا يهدمه نسب ولا قرابة.

وفي مساء كئيب ، عاد الأب مترنحًا ، تتعثر خطاه ، وتتصارع في رأسه بقايا وعي مخمور. استقبله عبد الله بنظرة يختلط فيها الألم بالرجاء ، وقال بصوت خافت يرتعش من الحزن:

يا أبت، لشدّ ما أفسدك أصحابك اليهود ، يا أبت، تطهّر من هذا الشرك في نفسك وبدنك ، واشهد شهادة الحق.

رفع الأب رأسه ببطء ، وعيناه غارقتان في ضباب الخمر ، ثم انفجر غضبًا ، وصاح:

قاتلك الله ! أَوَلستُ أُصلي خلف صاحبك ؟

تنهد عبد الله في مرارة ، وقال بهدوء المؤمن الواثق :

والمسلمون يعلمون حق العلم أنك تنافق رسول الله ﷺ.

كأن الكلمات كانت سياطًا من نار ، جلَدت كبرياء الأب ، فهاج وماج ، وعاد إلى شتم ولده ، وصاح صياح المخمورين:

ابتعد عني ! اذهب ولا تريني وجهك بعد الساعة ! رضيتَ أن تكون خادمًا للرجل الذي سلبني تاج يثرب ! اذهب ولا تدخل هذا البيت بعد اليوم !

لكن الفتى لم يتحرك ، بل اقترب خطوة ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، وقال برقة مشوبة برجاء:

يا أبت، إني شفوق بك ، رحيم ، فأنت أبرّ الناس عندي ، وقد أوصانا الله ورسوله بآبائنا وأمهاتنا...

قاطعه الأب في غضب عنيف :

أجئت تسمعني ما يقول عدوي ؟ اذهب قاتلك الله !

ثم خشي فجأة أن يذهب ولده إلى المسلمين فيفضح نفاقه ، فتدارك نفسه ، وقال بسرعة متلعثمًا:

اسمع يا عبد الله ، إياك أن تذكر لمحمد ما قلت عنه... لا أعني أنه عدوي يا ولدي ، إنما أعني أنه...

ثم انهمرت دموعه بغتة، دموع حسرة وكمد ، وقال بلعثمة المخمورين:

أتنصره عليّ يا عبد الله ؟ وهو الذي سلبني ملكًا أردت أن ترثه بعدي ؟

اقترب عبد الله أكثر ، وجثا أمام أبيه ، ووضع يده على يده المرتعشة ، وقال بصوت متهدج:

هداك الله يا أبت ، هداك الله.

لكن الأب انتفض كأن مسًّا شيطانيًا أصابه ، وصاح في جنون المنافق :

يهديني إلى ماذا ؟ إلى المذلة عند قدمي صاحبك ؟ أ بعد تاج يثرب الذي كان الأوس والخزرج يعدونه لي ، أغدو تابعًا لرجل من مكة جاءنا فقيرًا معدمًا خائفًا يترقب ؟ اذهب ويحك ولا تريني وجهك بعد الساعة !

خرج عبد الله من الدار وقلبه يعتصر ألمًا. كان يشعر أن بينه وبين أبيه بحرًا من الظلام ، لا يجسر أحد على عبوره. سار في طرقات المدينة ، والنجوم تتلألأ فوق رأسه ، كأنها عيون الرحمة تراقبه ، فرفع رأسه إلى السماء وهمس :

اللهم اهدِ أبي ، فإنك تعلم أني ما أردت إلا نجاته .

X

أما الرجل الغريب ، صاحب اللكنة الأعجمية، فقد شهد المشهد من بعيد ، واختزن تفاصيله في ذاكرته كما تختزن الأرض المطر قبل أن تنبته. سار متثاقل الخطى ، يحدّث نفسه:

يا لعظمة هذا الدين! كيف يشقّ القلوب شقًّا، فيفرزها كما يفرز المنخل الحبّ من الزوان. هذا فتى يقف في وجه أبيه ، لا حقدًا ولا عقوقًا ، بل حبًا ورحمة وخوفًا عليه من الهلاك. وهذا أبٌ أعمته شهوة الملك عن رؤية الحق ، فصار عبدًا لحجر ، وأسيرًا لكأس ، وسجينًا لكبرياء أجوف.

توقف لحظة ، واستند إلى جدار طيني ، وأغمض عينيه. رأى في مخيلته وجه النبي ﷺ ، ذلك الوجه الذي يحمل من السكينة ما يطفئ حرائق النفوس ، ومن الرحمة ما يغسل أدران القلوب. همس في نفسه :

ما أعظم هذه الرسالة التي تصنع من العبيد أحرارًا ، ومن الضعفاء أقوياء ، ومن المتخاصمين إخوة. وما أتعس من أعرض عنها ، ولو كان ملكًا متوجًا.

كانت المدينة تغفو على إيقاع جديد ، إيقاع أمة تولد من رحم المعاناة ، وتتربى على موائد الصبر والجهاد. وفي بيوتها كانت تُنسج حكايات الألم والأمل ، الإيمان والنفاق ، النور والظلمة. وفي قلب كل إنسان كانت معركة لا تقل ضراوة عن بدر ، معركة بين هوى النفس ونداء الحق.

X

أما عبد الله، فقد مضى في طريقه ، والدموع تبلل لحيته الفتية ، لكنه كان يشعر بنور دافئ يملأ صدره ، نور اليقين بأن الحق وإن تأخر

نصره في بعض القلوب ، فإنه لا يموت ، وأن البذرة التي غرسها في قلب أبيه ، ولو بدت اليوم يابسة ، فإنها ستنبت يومًا ما، حين يشاء الله.

وفي تلك الليلة، كانت المدينة كلها تصغي إلى همس التاريخ وهو يُكتب من جديد ، سطرًا سطرًا ، بمداد الدم والدموع ، وبنور الإيمان الذي لا يخبو .

# ظلال النخيل ودموع الغريب
## سيرة قلبٍ يبحث عن اليقين

في تلك الليلة الهادئة التي انسدل فيها السكون على يثرب كستار من حريرٍ أسود ، كان القمر معلقًا في كبد السماء كعينٍ ساهرة ، يراقب البيوت الطينية المتواضعة ، والطرقات الضيقة التي تهمس تحت أقدام العابرين. وكانت الريح تمرّ بين النخيل كأنها ترتل دعاءً خفيًا ، يحمل أنين الأرض وتنهيدة البشر.

في غرفة فقيرة تكاد جدرانها تتكئ على بعضها من شدة الوهن ، جلس الرجل الطوال المليح الوجه ، صاحب الملامح الأعجمية والنبرة العربية المكسوة بلكنة غريبة ، جلس وحده ، وقد ألقى الليل بردائه الثقيل على كتفيه ، وترك له فسحةً واسعة للحديث مع نفسه. كان سلمان ، العبد الفارسي ، الغريب في أرضٍ لا تشبه طفولته ولا تشبه أحلامه الأولى ، لكنه مع ذلك وجد فيها شيئًا من السكينة لم يعرفه من قبل.

مدّ بصره إلى سقف الغرفة ، حيث تتراقص ظلال سعف النخيل بفعل ضوء القمر ، فبدت كأشباحٍ شفافة تحكي له قصص الأسفار الطويلة ، والقلوب المتعبة، والبحث الأبدي عن الحقيقة. وتنهد تنهدةً عميقة خرجت من قاع روحه ، وقال في سره:

ما أثقل هذا الليل حين يتخم بالذكريات ، وما أضيق الصدر حين يمتلئ بالحنين والخوف معًا .

كان حزنه هادئًا ، رزينًا ، لا يعرف الصراخ ولا التمرد ، بل يتخذ هيئة سكونٍ كثيف، كالماء الراكد في بئرٍ عميقة. حزنه على عبد الله ، ذلك الفتى الذي أحب أباه حبًا فطريًا ، ثم وجد نفسه مطرودًا من داره لأنه اختار الإسلام طريقًا ، فآوى إلى بيت فقير قرب بيت سلمان ، لا يفصله عنه سوى سور حديقة واهنة ، كأنها الحدّ الفاصل بين عالمين : عالم الاستقرار وعالم التيه.

أغمض سلمان عينيه ، فانساب شريط الذكريات بطيئًا، دافئًا، موجعًا.

X

ذكريات الصداقة الأولى

لشدّ ما أحببت عبد الله هذا... هكذا همس لنفسه ، وكأن صوته يخشى أن يوقظ الليل. أحببته قبل أن يدخل في دين القرشي الذي جاء من مكة ، أحببته حين كان قلبه طريًا كغصنٍ أخضر ، لم تلوثه حسابات السياسة ولا أدران النفاق .

كان عبد الله إذا رآه خارجًا إلى العمل في بساتين أسياده اليهود ، ابتسم له ابتسامة صافية ، وقال في رقته المرحة :

نعمت صباحًا يا سلمان ، خرجت اليوم من دارك مبكرًا .

وكان سلمان يردّ مبتسمًا، وفي ابتسامته شيء من مرارة العبد ، وشيء من حكمة الغريب :يا سيدي عبد الله ، وهل لعبدٍ مملوكٍ حيلة في نفسه ؟ أمرني من ملكهم الله رقبتي أن أقوم مع أول نور للشمس ، ولا أعود إلى هذا البيت إلا بعد أن يسود الظلام.

فيهزّ عبد الله رأسه أسفًا ، ويقول بصوت تختلط فيه الغضبة بالأسى :

لبئس ما يفعل بك كعب بن أسد القرظي. لقد رأيت زوجته راحيا تقذفك أمس بلحي بعير لأنك توانيت في تقديم الخمر لأصحاب زوجها .

وكان سلمان يبتلع الإهانة بصمت ، ثم يقول بهدوء :

وكان أبوك ، أبيّ بن أبي سلول ، يبين هؤلاء الصحاب يا عبد الله ؟ .

فيتنهد عبد الله ، وتغيم عيناه بحزنٍ كثيف

أعرف يا سلمان ، أعرف. وإني أحاول جهدي أن أباعد بينه وبين أصحاب السوء هؤلاء ، ولكنه لا ينسى أبدًا أوهام التاج. هؤلاء الأخباث هم الذين زيّنوا له هذه الأوهام .

ثم يقترب منه أكثر ، كأنما يخشى أن تلتقط الجدران حديثهما ، ويهمس :

والآن يحرضونه على صاحبكم محمد. سمعتهم أكثر من مرة يقولون له : الصبر يا أبا الحباب ، أبق مع أصحاب محمد ، ودعهم يصدقون إنك أسلمت وتابعت الرجل ، وإلا فمن أين نعرف أخباره وننقلها إلى قريش في مكة ؟

وكان سلمان يجيبه بصوتٍ حزين :

أعرف يا عبد الله ، أعرف .

X

حوار القلوب

توقف سلمان عن الاسترسال قليلًا ، وكأن صدره ضاق بما يحمل ، ثم تابع في سره: لا أحسبك حذرت صاحبك منه ...

وكان عبد الله يجيبه بثقةٍ ممزوجة بالدهشة :

رسول الله ﷺ يعرف أن أبي هو زعيم المنافقين في المدينة ، ولكنه يبقي عليه ويكرمه من أجلي .

فيهز سلمان رأسه إعجابًا ويقول :

ما أحلم صاحبك يا عبد الله .

ثم تلمع في عيني عبد الله شرارة أمل ، فيسأله :

أما آن يا سلمان أن تجعله صاحبك ؟ على أي دين أنت يا سلمان ؟

وكان هذا السؤال يضرب قلب سلمان كصاعقة ، فيسكت لحظة ، ثم يقول بصوتٍ مرتجف:

والله ما أعرف كيف أجيبك يا عبد الله. فما من مرة سألت نفسي هذا السؤال حتى ارتعدت أوصالي وتغشاني الذهول. إنهم يملكون جسدي وحركة أعضائي ، لكنهم لا يملكون عقلي.

X

ذكرى اليوم العظيم

وانساب الحديث إلى ذلك اليوم الخالد ، اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ يثرب ، فاهتزت لها القلوب كما تهتز الأرض بالمطر الأول.

قال عبد الله :

أتذكر أول يوم جاءنا فيه رسول الله ؟

فأجابه سلمان ، وصوته يفيض شوقًا

أذكره ولا أنساه ما حييت .

وتدفقت الذكريات : كان سلمان يومها فوق نخلةٍ عالية في بستان كعب بن أسد ، يعمل بيديه المتشققتين ، وقلبه معلّق بشيءٍ غامض لم يتضح له بعد. سمع الهمس يدور بين بني قريظة وقينقاع والنضير عن نبي خرج من مكة مهاجرًا ، وعن أنصارٍ ينتظرونه في قباء كل يوم.

وفي ذلك اليوم ، سمع امرأة كعب تقول بحقدٍ دفين :

قاتل الله الأوس والخزرج ، اجتمعوا على رجل بقاء يزعمون أنه نبي قريش !

فارتجف قلب سلمان ، وسقطت من يده أداة العمل، وكأن الروح سبقت الجسد نحو الحقيقة. أحس أن شيئًا عظيمًا يولد في الأفق ، وأن حياته التي تنقلت بين المجوسية والنصرانية واليهودية توشك أن تبلغ نهايتها.

X

عاد سلمان من ذكرياته إلى غرفته الفقيرة. مدّ يده إلى إناء ماءٍ موضوع في الركن ، شرب منه جرعةً صغيرة ، ثم مسح وجهه ، وكأنما يغسل عن روحه غبار السنين.

قال في سره

يا لغرابة الطريق الذي ساقني من بلاد فارس إلى هذه الأرض ! كنت أبحث عن الله في النار، ثم في الصليب ، ثم في التوراة ، حتى وجدت قلبي يطرق باب محمد ، ففتحه لي على مصراعيه .

وتسللت إلى قلبه صورة عبد الله ، الفتى الذي ترك دفء بيت أبيه ، واختار برد الفقر في سبيل إيمانه. شعر سلمان بوخزٍ في صدره ، وكأن شوكةً صغيرة غرست في لحم القلب.

ما أثقل أن ترى من تحب يتعذب ، ولا تملك له إلا الدعاء .

ثم دار في خلده حوار داخلي طويل :

هل كان اختياري أصوب من اختياره ؟ أنا عبدٌ مسلوب الإرادة ، لكنه فتى حرّ، كان يمكنه أن ينعم برغد العيش وجاه الأب ، فاختار طريقًا مليئًا بالأشواك. أيُّ قلبٍ هذا الذي يحمله ؟ وأيُّ نورٍ أشرق فيه حتى غلب ظلام الخوف ؟

X

الليل شاهدًا على الألم والأمل

في الخارج ، كانت أصوات الليل تزداد عمقًا: نباح كلبٍ بعيد ، حفيف نخيل ، وقع خطوات عابرٍ متأخر. وكل صوتٍ كان يدخل إلى قلب سلمان فيوقظه من غفوته الروحية ، ليعيده إلى واقعٍ قاسٍ ، لكنه مفعم بالرجاء.

قال في نفسه :

سيطلع فجر جديد على هذه المدينة ، فجر لا مكان فيه للنفاق ولا للعبودية ، فجر تتحرر فيه الأرواح قبل الأجساد .

وتخيل عبد الله قائمًا يصلي في جوف الليل ، يناجي ربه بدموعٍ صامتة ، فابتسم رغم حزنه ، و قال :

طوبى لك يا عبد الله، فقد سبقتني إلى مقامٍ عالٍ من الصدق .

X

وهكذا ظل سلمان طوال الليل بين ذكرى وحلم ، بين حزنٍ وأمل ، بين خوفٍ ورجاء. لم يكن مجرد عبدٍ يعمل في بساتين اليهود ، بل كان روحًا هائمة تبحث عن المعنى ، وقلبًا نابضًا بالحب والوفاء.

ومع أول خيطٍ من نور الفجر ، نهض من مكانه ، توضأ ، ووقف يصلي ، وفي دعائه ضمّ عبد الله، وضمه أباه، وضمت المدينة كلها ، وضمت الإنسانية الباحثة عن خلاصها.

كانت يثرب تستعد لتصبح مدينة النور ، وكان سلمان يعلم في قرارة نفسه أن هذه التحولات العظيمة تبدأ دائمًا من قلبٍ واحد صدق في بحثه ، ومن دمعةٍ واحدة سقطت في جوف الليل ، فأنبتت فجرًا جديدًا.

# القلب يتكلم

في تلك اللحظة التي كان فيها النهار يوشك أن يسلّم مفاتيحه للمساء ، وتتمايل فيها ظلال النخيل على تراب يثرب ، وقفتُ في أعلى النخلة ، أراقب الدنيا من علٍ ، كأنني أبحث عن مخرج من قفص العبودية ، أو عن نافذة تطلّ على مصيرٍ آخر غير هذا الذي أُقذِفُ فيه كل صباح. كان الهواء ساخنًا ، خانقًا ، محمّلًا برائحة الترقّب ، وكأن المدينة كلها تحبس أنفاسها في انتظار حدثٍ جلل.

في الأسفل ، تحت جذع النخلة ، وقف كعب بن أسد ، سيدي ، وقد بدا وجهه مشدودًا كوترٍ أوشك أن ينقطع. كانت زوجته راحيل إلى جواره ، تتحرّك في عصبية ، وعيناها تضطرمان بشرارة خوفٍ مكتوم. سمعته يقول في غيظٍ وقهر:

ابن عبد المطلب ؟

أجابته راحيل بصوتٍ متقطّع ، يختلط فيه الذهول بالرعب :

نعم... هو الذي ينتظرونه. جاءهم النبي الذي كنا نخوّفهم به ، قالت لهم الله... جاءهم.

اهتزّ جسدي كله. ارتجف قلبي كما لم يفعل من قبل ، كأن الكلمات اخترقت صدري لا أذني .النبي ؟ تلك الكلمة التي طالما سمعتها همسًا في زوايا التوراة ، والتي ظلّت تحوم في مخيلتي كطيفٍ بعيد ، ها هي اليوم تهبط على أرض الواقع ، قريبة ، ملموسة.

لكن كعب انتفض كأن صاعقة ضربته ، وزجر زوجته في شدّة وهو يحدّق نحوي ، وأنا في أعلى النخلة:

صه يا امرأة ! وإلا سمعك العبد في رأس النخلة ، فيذهب بقولك إلى صاحبه في يثرب. لا تقولي إنه نبي... من قال إنه نبي ؟

قالت في ارتباك واضح :

التوراة يا كعب... التوراة هي التي تقول.

صاح فيها بعنف :

اسكتي فضّ الله فاك ! لم يبقَ إلا أن ترفعي صوتك بما في التوراة، وبما نحاول أن نخفيه عن الناس منها. اسكتي ، فلا يسمعك العبد في رأس الشجرة. ما أحسب إلا أنه سمعك، فها هو ينزل مسرعًا.

كنتُ بالفعل قد بدأتُ النزول ، لا أملك السيطرة على جسدي. كأن جذوع النخيل دفعتني دفعًا ، وكأن الأرض تناديني. وحين بلغتُ أسفل الشجرة ، استقبلني كعب بزجرةٍ غاضبة:

أيها العبد ! ما الذي دفعك إلى ترك عملك في رأس الشجرة ؟

رفعتُ بصري إليه ، وكان قلبي يخفق كطائرٍ محبوس في قفص ضيّق ، وقلت في اضطرابٍ صادق :

سيدي... بحَقّ الله أصدقني، أحقّ ما سمعت ؟

تغيّرت ملامحه فجأة ، ولبس قناع المكر ، وسألني في خبث:

من راحيل؟

قلت دون تردّد:

أجل.

وماذا سمعت أيها العبد ؟

إن نبي قريش قد جاء.

رأيته يتنفّس الصعداء ، وكأن حملاً ثقيلاً أزيح عن صدره ، وظنّ أنني لم أسمع ما دار عن التوراة ونبي آخر الزمان ، فقال باستخفاف :

أهذا كل ما سمعت ؟ ما جاء إلا رجل اجتمع عليه سفهاء بني قيلة في قباء.

قلت في اندفاعٍ لا أملك كبحه :

لولا أنه نبي قريش ما اجتمعوا عليه في قباء. ألسنا نراهم يخرجون كل يوم ينتظرون وصوله ؟

هنا انفجرت راحيل غضبًا ، وزجرتني ، ثم أمسكت بالسوط ولسعتني به مرارًا ، وهي تقول:

ما لك أنت ولهذا ؟ اصعد إلى عملك في رأس النخلة !

لكن السوط لم يكن شيئًا أمام النار التي اشتعلت في داخلي. التفتُّ إلى كعب برجاءٍ يكاد يبكي:

لو أمهلتني يا سيدي حتى أذهب إلى قباء...

قاطعني صارخًا :

أيها العبد الكسول ! تترك عملك من أجل رجل لا علم لنا به ؟ هل اشتريتك لتعمل لي أم لتذهب ضائعًا منشِدًا مع سفهاء الأوس والخزرج أناشيد استقبال القرشي ؟ اذهب إلى عملك وإلا وضعتك في الحديد!

صعدتُ النخلة جسدًا ، وبقي قلبي في قباء.

X

لم تمضِ أيام حتى اقترب مني الفتى المسلم ، عبد الله بن أبي سلول ، وكان حديث العهد بالإيمان ، شديد التعلّق بالنبي الجديد. قال لي وهو يبتسم ابتسامة من رأى النور:

كنتُ قرب ذلك البستان ، ورأيت ما جرى بينك وبين سيدك وزوجه ، وأدهشني يومها السرور الذي أشرق في وجهك وأنت تسألهما : أحقّ أن نبي قريش قد جاء ؟ كأنك عرفت أنه نبي. عجبًا لك يا سلمان ، على أي دين أنت ؟

قلت له في حذر :

إن هذا يطول الحديث عنه ، ولا تصلح له هذه الوقفة قرب دارك . ولو رآني سيدي لألهب ظهري بالسوط. لكن وافِني إذا كان المساء.

قال في لهفة:

الليلة يا سلمان... الليلة.

X

حين خيّم سكون الليل على يثرب ، وتوارى ضجيج النهار خلف ستار الظلمة ، تسلّل عبد الله إلى الغرفة الملاصقة لداره ، حيث كنت أتناول لقيمات مغموسة في زيتٍ قليل. جلس قبالتي في صمت ، حتى فرغت من عشائي ، ثم قال:

هات ما عندك يا صديقي.

تنفّست بعمق ، وقلت:

يا عبد الله ، وما أعز هذه الكلمة ...صديقي .إنها كلمة لا تُهدى لعبدٍ مملوك مثلي إلا نادرًا. لقد ألفنا الناس لا يصادقون العبيد ، ولا يفتحون لهم قلوبهم. لكني أعرف أنك تكنّ لي من الودّ مثلما أكنّ لك ، رغم عبوديتي ورقة حالي.

قاطعني بلطف:

لا تُعنِ نفسك بما لا يليق بفتى في مثل سنك وسني . إني والله لأحبك ، ولهذا سألتك: على أي دين أنت ؟ لعلّ الله يجمع بيننا على دينٍ واحد.

ثم أضاف بنبرةٍ يملؤها اليقين:

دين صاحبك محمد... وهو دين الحق.

سكتُّ لحظة ، كأنني أستجمع شتات عمري ، ثم قلت:

إذن فاسمعني يا أخي.

حدّثته عن لغتي التي تخالطها أعجمية خفيّة ، وعن أرضٍ بعيدة اسمها جي في أصبهان ، وعن أبٍ ثريّ من دهاقين فارس ، وأمٍّ لا ترى في الدنيا غيري. كنت وحيدهما ، مدلّلهما ، غاية أملهما. نشأت في بيتٍ يغمره الثراء ، لكن قلبي كان أفقر من أن يرضى بما حوله. كنت أرى في المجوسية نارًا بلا روح ، وطقوسًا بلا معنى ، فبحثت عن الله كما يبحث العطشان عن قطرة ماء.

سافرتُ، وتنقّلت بين الرهبان ، من ديرٍ إلى دير ، أطلب الحقيقة ، حتى غدر بي بعضهم ، وباعوني عبدًا في سوقٍ من أسواق العرب. وهكذا وجدت نفسي في يثرب ، مقيّدًا بالرقّ ، لكن روحي ظلّت حرّة ، تحلّق في فضاءات الإيمان.

قلت لعبد الله بصوتٍ تخنقه العبرة:

يا صديقي، إن قلبي منذ سنين ينتظر هذا النبي ، ويعرف علاماته ، ويحفظ أوصافه. فلما سمعتُ اليوم أنه قد جاء ، شعرتُ كأن القيود تسقط عن معصمي ، وكأن أبواب السماء تُفتح دفعة واحدة.

نظر إليّ عبد الله طويلاً ، ثم قال:

إذن فاذهب إليه ، يا سلمان. اذهب إليه بقلبك قبل قدميك.

وفي تلك الليلة ، لم أنم. ظللتُ أحدّث نفسي ، أجادلها ، وأصارع خوفي ، وأربط آمالي بنجمةٍ بعيدة في سماء يثرب. كنت أعلم أن الطريق إلى النبي لن يكون سهلًا لعبدٍ مثلي ، لكني كنت على يقين أن من وجد الله ، هان عليه كل ما سواه.

وهكذا بدأت رحلتي الكبرى... رحلة البحث عن الحرية الحقيقية ، لا حرية الجسد ، بل حرية الروح. رحلة رجلٍ خرج من ظلال النخلة ، ليدخل في نور النبوّة.

# بين نار المجوس ونور النبوة
# رحلة سلمان الفارسي إلى الحرية واليقين

في مساءٍ مدينتيّ هادئ ، حين كانت الشمس تميل نحو مغيبها ، وتنسل خيوط الضوء الأخيرة بين نخيل يثرب ، جلس شابان متجاورين على عتبة بيتٍ فقيرٍ لصيقٍ ببيت عبد الله بن أبي. لم يكن المكان يوحي بشيءٍ من الثراء أو السعة ، لكنه كان مشبعًا بسكينةٍ غريبة ، كأنما الأرواح الطاهرة حين تلتقي تُضفي على الأمكنة مسحةً من الطمأنينة تتجاوز حدود الفقر والغنى.

كان أحدهما عبدًا مملوكًا ، لا يملك من أمره شيئًا ، قد أضناه القهر ، وطال عليه الليل ، اسمه سلمان ، فارسيّ المولد ، عربيّ الروح ، عالميّ النزعة. والآخر عبد الله بن أبي ، من بيتٍ رفيع العماد من بيوت الخزرج ، شاب أسلم قلبه لله ، فصار من خاصة أصحاب رسول الله ﷺ ، مشبعًا بالإيمان ، مشدودًا إلى السماء بخيطٍ من نور لا ينقطع.

نشأت بينهما صداقة على مهل ، صداقة لم تصنعها المصالح ، ولا قرب النسب ، بل جمعتها وحدة الشعور الإنساني ، وظمأ الروحين إلى معنى أعمق للحياة. كان عبد الله يرى في سلمان صمتًا عميقًا ، وحزنًا شفيفًا ، وحكمةً تتلألأ خلف عينين غائرتين ، فيشعر أن وراء هذا الصمت قصةً تستحق أن تُروى. وكان سلمان يجد في عبد الله صدرًا رحبًا ، وقلبًا نقيًا ، وطمأنينة لم يعرفها من قبل.

وفي تلك الأمسية ، تواعدا أن يفتح كلٌّ منهما لصاحبه أبواب قلبه ، وأن يُسدل ستار الكتمان عن ماضيه ، لعل تلك الصراحة توثّق عُرى الصداقة ، وتجعلها أشبه بعهدٍ روحيٍّ لا ينفصم.

قال عبد الله وهو يحدّق في وجه صاحبه :

يا سلمان ، طال صمتي عن السؤال ، وطال شوقي إلى المعرفة. إن في عينيك قصةً ، وفي سكونك تاريخًا ، وفي تنهّداتك حنينًا لا يهدأ. حدّثني عنك ، عن دينك ، عن رحلتك ، فلعل الله يجعلني سببًا في أن تجد الراحة التي أتمناها لك.

ابتسم سلمان ابتسامةً شاحبة ، كأنها بقايا ضوءٍ فوق غيم كثيف ، وقال بصوتٍ خفيض :

يا عبد الله ، لو علمتَ كم أثقل هذا السؤال قلبي ! إنها رحلة طويلة ، محفوفة بالتيه والعذاب ، لكنها في نهايتها نورٌ لا يشبهه نور.

وسكت قليلًا ، ثم أطرق رأسه كمن يغوص في بحر الذكريات ، قبل أن يرفع بصره ويبدأ الحكاية.

X

كنتُ يا عبد الله وحيد أبويّ الثريين ، أنعم من الحب والرعاية بما لم ينعم به ولد. كان أبي من دهاقين بلدته ، بلدة جي في أصبهان ، واسع التجارة ، ممتد النفوذ ، تسير قوافله شرقًا حتى الهند ، وشمالًا إلى بلاد التتار ، وغربًا إلى الشام. وكان حبه لي يفوق الوصف ، يحيطني بعنايةٍ بالغة ، حتى ليخيل إليّ أحيانًا أنني مركز الكون في نظره.

كان يأخذني معه إلى بستانه كل صباح ، فإذا تمايلت الأغصان تحت نسيم الفجر ، وانعكست الشمس على قطرات الندى ، قال لي بصوته العميق:

يا مايه ، لقد فكرت طويلًا في مستقبلك. أنت ولدي الوحيد ، وستَرث تجارتي وأموالي وضياعي ، كما سترث من أمك مثل ذلك ، فتغدو أثرى أثرياء هذه المنطقة. ولكن ، يا بني ، هل تظن أن هذا يكفي لطموحي لك ؟

كنت أجيبه بصدق الطفل وبساطة الروح :

يا أبتاه ، وأي طموحٍ أكبر من هذا ؟

فيقاطعني بحزمٍ ممزوجٍ بالعاطفة:

إن الذي أعدّ لك كل شيء هو معبودنا العظيم : النار.

هكذا ، دون تردّد ، كنت أوافقه ؛ فما كنا نعرف لنا ربًا غير تلك النار المقدسة التي نشأنا على عبادتها ، نتقرب إليها ، ونرهب غضبها ، ونرجو رضاها.

قال لي ذات يوم :

يا ولدي ، رأيت أن أهبك لمعبودنا العظيم ، أن تكون خادمه ، قطنه ، كبير كهنته. ألا تحب أن تكون جليس مولانا كسرى ؟

وتدفقت الكلمات في أذني كحلمٍ مهيب، فقلت:

ومن ذا الذي لا يحب ذلك ؟

أخذني يومها إلى غرفة النار في قصرنا. يا عبد الله ، ما رأيت في حياتي فخامةً كتلك الغرفة. أرضها من أفخر المرمر ، جدرانها مكسوة بالذهب المزركش ، وفي وسطها موقد نحاسي عظيم ، لا تخبو شعلته أبدًا. هناك ، سجد أبي وبكيتُ ، لا خشوعًا ، بل رهبةً ، وخضوعًا لهيبة المكان.

غير أن شيئًا في داخلي كان يتحرّك. سؤالٌ غامض ، قلقٌ مبهم ، شعورٌ بأن وراء هذا اللهب سرًا لا يُفصح عنه. كنت أراقب النار ، أراها تشتعل ثم تخبو لو لم يُغذّها الخدم بالزيت . كنت أقول في نفسي : كيف يكون إلهًا ما يحتاج إلى من يخدمه ؟ كيف يكون ربًا ما يعتمد في بقائه على يد البشر؟

كبر السؤال في داخلي كما تكبر الشرارة في الهشيم.

وذات يوم، مررت بكنيسة للنصارى ، فسمعت تراتيلهم ، ورأيت خشوعهم ، وشعرت بطمأنينةٍ لم أعرفها. دخلت ، وجلست أستمع ، فانفتح في قلبي باب جديد. سألتهم عن دينهم ، فأجابوني عن الإله الواحد ، وعن المسيح ، وعن المحبة. خرجت وأنا أحمل في صدري بذرة شكٍّ في ديني القديم ، وبذرة يقينٍ تبحث عن أرضٍ خصبة.

ومن يومها ، بدأت رحلة التيه : من راهبٍ إلى راهب ، ومن بلدٍ إلى بلد ، أطلب الحق ، وألاحق النور. حتى انتهى بي المطاف عبدًا مملوكًا ، بيعني سيدي ، وتداولتني الأيدي ، حتى وصلت إلى المدينة ، حيث سمعت بخبر نبيٍ يظهر في أرض العرب ، فاشتعل في قلبي أمل جديد.

## X

كان عبد الله يصغي وقد حبست الدموع في عينيه ، وارتعشت شفتاه من التأثر. رأى في قصة سلمان صورة الإنسان الباحث عن الحقيقة ، ذلك الذي لم يرضَ أن يعيش في قفص الموروث دون سؤال.

قال عبد الله بصوتٍ متهدّج :

يا سلما ن، إنك لم تُخلق عبدًا، بل خُلقت حرًّا. إن الروح التي سعت هذا السعي لا يليق بها القيد. أبشر ، فالله لا يضيّع من طلبه.

ابتسم سلمان ابتسامةً امتزج فيها الأمل بالحزن ، و قال :

لقد وجدت ضالتي ، يا عبد الله ، حين سمعت برسول الله ﷺ . كل ما مضى كان طريقًا إليه ، وكل ألمٍ كان خطوةً نحوه.

X

وفي تلك الليلة ، حين عاد إلى مضجعه المتواضع ، ظل سلمان ساهرًا ، يناجي نفسه :

يا رب ، كم تقلبتُ في الطرق ، وكم انكسرتُ على العتبات ! من نار المجوس إلى صليب النصارى ، ومن رهبان الشام إلى عبودية اليهود ، حتى انتهيتُ هنا ، في مدينةٍ يغمرها نور النبوة. أكنتَ تهيئني لكل هذا ؟ أكنتَ تسوقني بلطفك ، وإن بدا لي قهرًا ؟

كان قلبه يمتلئ يقينًا بأن ما ذاقه من العذاب لم يكن عبثًا ، وأن كل قيدٍ كان يُعدّه لحرية أعظم.

X

أما عبد الله ، فقد عاد إلى بيته وهو يردد في نفسه:

ما أعجب أقدار الله ! عبدٌ مملوك يحمل في قلبه كنوز الحكمة ، وحرٌّ من بيتٍ عريق يتعلم منه الصبر ! لعل الله أراد أن يعلّمني أن الكرامة ليست في النسب ، بل في الإيمان ، وأن الشرف ليس في الجاه ، بل في الصدق.

X

وفي الأيام التالية ، كان عبد الله يرافق سلمان إلى مجالس النبي ﷺ ، ويترقب معه لحظة الحرية الكبرى. وكان سلمان يستمع إلى القرآن ، فتسيل دموعه ، كأنما يجد في كل آية جوابًا عن أسئلته القديمة.

وحين نطق بالشهادة، أحسّ كأن القيود التي كبلت روحه لسنوات قد انكسرت، وكأن السماء انفتحت له، وكأن الأرض ضاقت بكل ما فيها إلا رحمة الله.

X

وهكذا ، يا عبد الله ، ختم سلمان قصته ، لا باعتبارها حكاية ألم ، بل نشيد خلاص. لقد أدرك أن الإنسان لا يُقاس بما يملك ، ولا بما وُلد فيه ، بل بما يبحث عنه ، وبما يضحي في سبيله.

كانت صداقتهما مثالًا حيًا على أن الأرواح إذا تلاقت على درب الحق ، ذابت الفوارق ، وسقطت الحواجز ، وصار العبد حرًا بالإيمان ، وصار الحر عبدًا لله.

وفي ليالي المدينة الهادئة ، كان الشابان يجلسان متجاورين ، ينظران إلى السماء ، ويتبادلان صمتًا أبلغ من الكلام ، صمتًا يقول : هنا ، في هذا النور ، تنتهي الرحلة ، وتبدأ الحياة.

# لهيب الحقيقة

## حكاية النار والروح والحرية

كان الليل يهبط ببطء على المدينة ، كأن السماء تنسج ستارًا من حريرٍ أسود مطرّزٍ بالنجوم ، ثم تلقيه على الأرض لتخفي صخب النهار وتكشف همس القلوب. وفي ركنٍ من أركان المسجد النبوي ، حيث يتعانق الضوء الخافت مع الظلال ، جلس سلمان الفارسي إلى جوار صاحبه عبد الله بن أبي ، وقد انسابت بينهما سكينةٌ شفافة ، كأن المكان كله يتحوّل إلى قلبٍ واحدٍ نابضٍ بالذكر والطمأنينة.

كان الصمت بينهما ممتلئًا بالكلام ، وكانت العيون تسبح في فضاءٍ بعيد ، لا تحدّه الجدران ولا تضبطه الأزمنة . ثم قال عبد الله بصوتٍ خفيض ، يحمل دهشة صادقة لا تخلو من وجعٍ قديم:

إنك لتذهلني يا سلمان... أكنتَ حقًا تصدّق ما كان يقوله أبوك عن النار ؟ أكنتَ تؤمن أنها الإله الذي يعطي ويمنع ، ويحيي ويميت ، ويمسك مفاتيح المصائر ؟

ابتسم سلمان ابتسامة رقيقة ، فيها حزنٌ هادئ وصفحٌ واسع ، وقال في تؤدةٍ مشوبة بحكمة التجربة :

على رسلك يا عبد الله ، ولا تسارع إلى اللوم. هل نسيت أنك كنتَ، قبل عامٍ واحدٍ فقط ، تعبد صنمًا من حجر ، تضرع إليه في السراء والضراء ، وتخشاه في الليل والنهار ؟

خفض عبد الله رأسه ، كأن الذكرى صفعته صفعةً خفية ، وقال بأسفٍ يخرج من عمق القلب :

صدقتَ والله يا سلمان. ما كان أضيعنا قبل أن نهتدي إلى الخالق العظيم بالحبيب ﷺ . كنا كمن يسير في صحراء بلا دليل ، نطارد السراب ونحسبه ماء ، ونحسب الظل حقيقة.

ساد الصمت لحظة ، كأن الأرواح تستعيد أنفاسها قبل الغوص في لجّة الذكريات. ثم قال عبد الله، وقد لمع في عينيه فضولٌ مشوب بالشجن:

حدّثني يا سلمان... حدّثني عن مجلس النار في فارس ، عن تلك الغرفة التي طالما ذكرتها وكأنها جرحٌ مفتوح في ذاكرتك.

تنهد سلمان طويلًا ، وشعر كأن صدره ينفتح على دهاليز بعيدة من الزمن ، وقال بصوتٍ عميق كأنه يخرج من قاع السنين :

كانت فارس ، يا عبد الله ، مملكةً للطقوس والرهبة ، تختلط فيها السياسة بالدين ، وتتعانق فيها الأساطير مع الحقيقة حتى لا يُعرف أين يبدأ الوهم وأين ينتهي الواقع . وكان بيتنا من البيوت العريقة ، تفيض خزائنه بالذهب ، وتعلو فيه مكانة أبي ، الذي كان من كبار خدّام النار وحماة معابدها.

سكت قليلًا ، ثم تابع :

في يومٍ لا أنساه ما حييت ، أخذني أبي إلى غرفة النار المقدسة. كانت الغرفة تتلألأ كأنها قلب القصر ، جدرانها من ذهبٍ مصقول ، وأرضها من رخامٍ أبيض بارد ، وسقفها مرصّع بنجوم من فضة. وفي الوسط منصة مرمرية عالية ، يستقر فوقها مجلس النار ، تتراقص حوله ألسنة اللهب ككائنٍ حيٍّ لا يهدأ.

ارتجف صوته وهو يكمل :

سجد أبي عند المنصة ، وانحنى جسده المهيب كغصنٍ أثقله المطر . بكى وتوسل إلى النار أن تقبلني خادمًا لها ، وأن تجعلني من عبيدها المخلصين ، فلا أتوانى لحظة عن رعايتها ومدّها بالزيت المقدس. دعا أن تباركني ، وأن تهبني مستقبلًا دينيًا عظيمًا ، حتى أصل يومًا إلى أكبر منصبٍ في البلاد : كاهن النار الأكبر.

سكت سلمان ، وأحس عبد الله أن الكلمات تحوّلت إلى صورٍ حيّة ، تشتعل وتخبو في آنٍ واحد . ثم قال سلمان :

وبعد أن أنهى أبي دعاءه ، خرج وتركني وحدي في الغرفة الذهبية . كانت ألسنة النار تتراقص على الجدران ، لها حسيسٌ يشبه زئير الوحوش. شعرت يومها أنني أقف أمام قوةٍ غامضة ، لا أفقه سرها ، ولا أملك إلا الخضوع لها.

قال عبد الله في لهفة :

أكنت وحدك إذن ؟

أجاب سلمان :

لا، لم أكن وحدي. كان معي بركاش.

ومن بركاش هذا ؟

ارتسمت على وجه سلمان ابتسامةٌ دافئة :

فتى في مثل سني ، عبدٌ مملوك لأبي . رأى فيه كهنة أصبهان علاماتٍ زعموا معها أنه من الموعودين بخدمة النار. اشتراه أبي ، وجعله خادمًا لغرفة النار الذهبية . لا يفارقها إلا ليشتري الزيت المقدس ، أو ليأكل ، أو لينام في غرفةٍ صغيرة تجاورها.

سأل عبد الله :

وكيف كانت علاقتكما ؟

قال سلمان:

ثلاث سنواتٍ كاملة قضيتها في تلك الغرفة . قربت بيني وبينه الخدمة، وصنعت بيننا صداقةً عميقة ، ومودةً زادها الشباب توثقًا وقوة ، رغم تباين حالنا. كنتُ ابن بيتٍ ثري ، وهو عبد فقير لا يأبه به أحد ، ومع ذلك صار في منزلة الأخ ، بل أكثر . كنتُ قد عقدت العزم ، بيني وبين نفسي ، أن أهبه حريته ، وأن أجعله من خاصتي إذا آلت إليّ أملاك أبي.

ابتسم سلمان بحزنٍ لطيف :

لكنه لم يكن يعلم. لم يكن يطمع في المناصب ولا في الجاه . كان كل ما يتمناه هو الحرية... أن ينطلق في آفاق الأرض ، خفيفًا مرحًا ، كأن الريح خُلقت لتكون جناحيه.

ثم ضحك ضحكةً قصيرة :

كان فتىً فكهًا رغم القيود . وذات يوم ، ونحن في الغرفة المشتعلة ، قال لي في حذرٍ مرح : شيء في سجودك يا سيدي مابيه لا يطابق تعاليم الكهنة . أحسب أنك نسيت بعض تلك التعاليم.

ثم أردف كأنه يعابثني:

أم لعلك تناسيتها؟

قال عبد الله متلهفًا :

وماذا قلت له؟

قال سلمان :

سألته:

تعني ماذا يا بركاش ؟

فقال:

رمقتك وأنت تسجد، فلم تعد تضع روحك في هذا السجود. لم أعد أقرأ على وجهك ذلك الخشوع الذي عهدته منك .

هنا صمت سلمان لحظة ، وغاص في داخله ، كأن الذكرى تتحول إلى مونولوج داخلي :

كنتُ أعلم ، في قرارة نفسي ، أن النار لم تعد تملك قلبي. كنتُ أقف أمامها ، لكن روحي كانت بعيدة ، كأن بيني وبينها بحرًا من الأسئلة. كنتُ أكرر الأوراد ، لكن لساني كان يردد كلماتٍ لا يؤمن بها القلب. كنتُ أركع ، لكن داخلي كان قائمًا يسأل : أهذه نارٌ تُعبد ؟ أهذا لهيبٌ يملك سر الحياة والموت ؟ أم أننا نحن من نصنع آلهتنا من خوفنا ؟

ثم قال سلمان لعبد الله:

قلت له: عجبًا لك يا بركاش ، إذا كنت ترمقني ، فهذا يعني أنك على شاكلتي في قلة الاحتفال بمراسم العبادة.

فضحك و قال :

لا ترمني بهذه التهمة يا سيدي ، وإلا قتلني أبوك.

قلت له:

أَلَم يكن أن تناديني باسمي مجردًا ؟ لستُ سيد أحد.

فنظر إليّ بعينين فيهما مرحٌ وحزنٌ دفين ، وقال:

إلا أنا يا سلمان. لي أسياد كثيرون: أبوك ، وأمك ، وأنت ، وهذه النار. طالما توسلتُ إليها أن تهبني حريتي فلم تفعل. أتراها غير راضية عني ؟

سكت سلمان طويلًا ، وكأن الكلمات انطفأت في حلقه.

قال عبد الله في رقة:

وماذا كان شعورك ؟

قال سلمان بصوتٍ متهدج :

تلك اللحظة يا عبد الله ، كانت بداية انكسار الصنم في داخلي. فهمتُ أن العبودية ليست في السلاسل فقط ، بل في الأفكار. وأن الإنسان قد يكون حرّ الجسد ، عبد الروح. وأن النار التي نعبدها ليست سوى رمزٍ لخوفنا ، لعجزنا ، لحاجتنا إلى شيءٍ نتعلق به حين نفقد الطريق.

توقف قليلًا ، ثم تابع :

تلك الليلة لم أنم. ظللت أتقلب فوق فراشي الحريري ، أستمع إلى صدى السؤال يضرب جدران قلبي : لماذا لا تستجيب النار ؟ لماذا نخافها ولا نحبها ؟ لماذا نرجوها ولا نطمئن إليها ؟ وشيئًا فشيئًا ، بدأت صورة المعبود تتضاءل في داخلي ، حتى غدت مجرد لهبٍ بلا معنى.

أطرق عبد الله رأسه ، كأن القصة صارت مرآةً لروحه.

قال سلمان :

بدأت أراقب الكهنة ، فرأيت القسوة في وجوههم ، والتسلط في أحكامهم . و قلت في نفسي : كيف يكون الإله قاسيًا إلى هذا الحد ؟ وكيف يُعبد بالخوف لا بالمحبة ؟ ومن هنا بدأت رحلتي الطويلة ، رحلة البحث المضني عن الحقيقة.

ثم راح يقصّ عليه كيف خرج من فارس ، وكيف تنقل بين الرهبان ، وكيف ذاق مرارة الغربة والعبودية ، وكيف ظل قلبه معلقًا بسؤالٍ واحد : أين الله الحق ؟ حتى شاء الله أن يقوده إلى المدينة، وأن يضع يده في يد النبي ﷺ ، فتبددت ظلمات السنين في لحظة نور.

قال سلمان بصوتٍ امتلأ بالخشوع :

حين سمعت القرآن لأول مرة ، شعرت أن قلبي يُغسل من رماد السنين . عرفت يومها أن الله ليس نارًا ولا حجرًا ولا صنمًا ، بل نورٌ يهدي القلوب ، وسكينةٌ تسكن الأرواح ، وعدلٌ يحرر الإنسان من الإنسان.

سكت، وسكت عبد الله معه . كان الصمت هذه المرة أبلغ من الكلام . كان الليل قد اشتد سواده ، لكن النجوم ازدادت لمعانًا ، كأن السماء تشهد على التحول العظيم في قلب رجلٍ عبر من لهيب الوهم إلى نور اليقين.

قال عبد الله أخيرًا بصوتٍ خاشع :

سبحان من أخرجنا من الظلمات إلى النور... من نارٍ تعبد ، إلى ربٍّ يُعبد.

ابتسم سلمان ، ورفع بصره إلى السماء ، وقال في نفسه :

يا رب... ما أعظم الفرق بين نارٍ تأكل كل شيء ، ونورٍ يحيي كل شيء . ما أعظم الفرق بين عبوديةٍ تُذل ، وعبوديةٍ تُحرر. وما أكرمك إذ أخرجتني من غرفة النار الذهبية ، إلى فضاء التوحيد الواسع ، حيث لا سيد إلا أنت ، ولا معبود إلا أنت .

وهكذا انتهت الحكاية ، لكنها لم تنتهِ في القلوب. بقي معناها حيًّا ، يتوهج كجذوةٍ لا تنطفئ ، لا من نار الوثنية ، بل من نور الحقيقة. بقيت ذكرى بركاش ، رمز الإنسان الذي حلم بالحرية قبل أن يعرف اسمها ، وبقي سلمان شاهدًا على أن البحث عن الحق هو أقدس مغامرة يخوضها الإنسان ، وأن الطريق إلى الله ، وإن طال وتعثر ، يفضي دومًا إلى طمأنينة لا تشبهها طمأنينة.

وفي سكينة الليل، وتحت سماء المدينة ، انطوت صفحة من الماضي ، لتُفتح صفحات جديدة من نور، كتب فيها سلمان بدمع القلب وصدق الروح : أن الحرية الحقة تبدأ حين يتحرر الإنسان من أوهامه ، وأن الإيمان ليس ميراثًا ، بل رحلة شاقة ، تنتهي إلى يقينٍ يشبه الفجر بعد ليلٍ طويل.

# حين انطفأت النار في القلب

## اعترافات " مابيه " وسقوط المعبود

في تلك الليلة التي انكمشت فيها الظلال على جدران القصر الذهبي ، وتكاثفت أنفاسي حتى حسبتها دخانًا يتصاعد من صدري ، كنت أقف أمام النار التي طالما سجدنا لها ، لا بوصفها جمرة متوهجة ، بل ككيانٍ متعالٍ ، ربٍّ صامت ، لا يُسأل عمّا يفعل ، ولا يُناقَش في مشيئته. غير أنني، في تلك اللحظة التي تشقّقت فيها يقيناتي كما يتشقق الطين تحت وطأة الجفاف ، شعرت بأن شيئًا ما في داخلي قد انكسر، وأن سكون النار لم يعد يملك الهيبة ذاتها التي كانت ترتجف لها أطرافي.

جازفت ، وأنا أعلم أن الجسارة على المقدس ليست سوى دعوة صريحة إلى الهلاك . جازفت بأن اتهمت معبودنا بالعجز عن الإضرار بأحد أو جلب النفع لمن يتوسل إليه. قلت في تهيب ، وقلبي يخفق كطائر محبوس: أو لعلها لم تسمع توسلاتك ؟

ارتدّ السؤال عليّ كصاعقة. رأيت بركاش الورع يشهق ، وارتسم الذهول على ملامحه كما ترتسم النار على جدار مظلم . ظنّ أنني أختبر مدى إخلاصه للنار ، فقال في انفعالٍ مشوبٍ بالخوف :

لا تسمع توسلاتي ؟ المعبود لا يسمع ؟ لا ترفع صوتك بهذا يا سيدي ، فهو الكفر بعينه ! لو سمع به أحد لاتهمك بالكفر ، وعقوبته الموت كما تعلم.

كان صوته يرتعش ، لا من رهبة النار ، بل من رهبة الناس ، من سيوفهم المعلقة ، من قوانينهم التي لا ترحم. عندها أدركت أن الخوف الذي يسكننا ليس خوفًا من المعبود ، بل من بعضنا بعضًا.

سكتُّ لحظة ، وراقبت اللهيب يتراقص كراقصة متعبة تؤدي طقسًا محفوظًا ، لا روح فيه ولا وعي. ثم قلت له ، وقد آن أوان المصارحة :

يا بركاش ، أتكتم عني ؟

نظر إليّ بحذر ، وتراجع خطوة كمن يخشى الوقوع في فخ:

أكتم عنك ماذا يا سيدي  مابيه  ؟

ابتسمت بمرارة وقلت مطمئنًا:

لم أقل لك حتى تناديني بما ينادي به الصديق صديقه باسمه المجرّد. بيننا من الودّ ما يغنينا عن الألقاب.

تنهد ، واستوى في وقفته ، كأنه استجمع شجاعته ، و قال  :

حسنًا، ماذا تريد أن أكتم عنك يا  مابيه ؟

ترددت لحظة ، ثم اندفعت الكلمات من صدري كما يندفع السيل من فم الوادي :

أشياء طالما حدّثت بها النار إذا غبتَ أنت عن القصر لشراء الزيت المقدس.

تغير لون وجهه ، وسألني في توجس :

مثل ماذا ؟

قلت:

أتكتم عني ؟

هزّ رأسه في حيرة  :

عجبًا ، أنت تعرف أن نفسي فداك ، فكيف أفشي سرك ؟

اقتربت منه ، وخفّضت صوتي حتى لا يسمعنا إلا الصمت :

وإنه لسرّ خطير يا بركاش. كأنما قلت للمعبود في غيابك: هل تستطيع أيها المعبود أن تدافع عن نفسك إذا أطفأتك ؟ هل تستطيع أن تعود إلى الحياة إذا قتلتك ؟

شهق بركاش ، وكاد يسقط ، وقد رأى أحاسيس تتجسّد في كلماتي واضحة جليّة  :

مابيه  ، أقلت هذا للمعبود ؟

أجبته ببرودٍ ممزوج بالدهشة من ذاتي :

بل وجدت فرصة فافترضتها. أكدت لي أننا لسنا على شيء في عبادة النار.

تقدم خطوة ، وسأل بلهفة  :

وما تلك ؟

قلت ، وأنا أستعيد تفاصيل تلك اللحظة الحاسمة:

أطفأت النار حتى خمدت ، ثم قلت لها : عودي إلى الحياة إن استطعت. فلم تحر جوابًا ، لم يندّ عنها صوت ، ولم أسمع لها الحسيس الذي اعتدناه من ألسنتها. ثم أشعلتها ، فارتفعت ألسنتها من جديد تتراقص على جدران الغرفة الذهبية. فقلت لها : أينا أعظم أيها المعبود ؟ أنا الذي أميتك وأحييك ، أم أنت التي تموتين بيدي وتعودين إلى الحياة بإرادتي ؟ تعسًا لك من معبود.

ساد صمت ثقيل ، كأن القصر كله حبس أنفاسه. ثم انفجر بركاش ضاحكًا ضحكة قصيرة مكتومة ، سألني بعدها ساخرًا :

ولم تصعقك مكانك ؟

ابتسمت ، وقلت :

بركاش ، لا تظن أنني أمتحنك حتى تقع في النار ، فأخذك بكفرك. ما هكذا يفعل الصديق بصديقه. أنت وربّ خالق هذا الوجود ، خالق النار وخالقي وخالقك الذي لا نعرفه. أنت تدرك إدراكًا كاملًا ما في كلامي من صدق. وما أحسب إلا أنك مع طول خدمتك للنار قد ساورك بشأنها ما يساورني. أصدقني كما أصدقتك.

نظر إليّ طويلًا ، وكأنما يقيس المسافة بين قلبه ولسانه. ثم قال في جدّ و صدق صارم :

صدقت يا مابيه . ليس هذا بمعبود. وما أكثر ما قلت للنار مثل الذي قلت أنت لها. إني أعرف قوة النار وجبروتها إذا أمسكت بشيء ، ولكني عرفت بتجربتي معها أن الذي أقتله وأحييه بيدي وبإرادتي لا يمكن أن يملك لغيره خيرًا أو شرًا.

في تلك اللحظة ، شعرت بأن الأرض تميد تحت قدمي. كل ما بنيته من يقين ، كل ما ورثته من الآباء ، كل ما حُشيَت به طفولتي من خوف وتقديس ، انهار دفعة واحدة. سألت في حيرة وجودية تكاد تمزقني: فمن نعبد يا بركاش ؟ أيُّه أولى بالعبادة من غيره ؟

تنهد بعمق ، و قال :

لست أدري يا مابيه . طالما فكرت في هذا ، فلم أهدِ إلى شيء في نهاية الأمر. قلت في نفسي : سأكفر بالنار فيما بيني وبين نفسي ،

وأعبدها وأسجد لها بأعضائي أمام أبيك ومن معه ، وأدع قلبي لمن خلقه يهديه إلى سبيله الذي لا أعرفه.

كلماته وقعت في روحي وقع المطر على أرض عطشى. لأول مرة شعرت بأنني لست وحيدًا في هذه الحيرة ، وأن ثمة من يشاركني ذلك التمزق بين الظاهر والباطن ، بين الطقوس والحقيقة ، بين الخوف والبحث.

تسللت تلك الليلة إلى مخدعي ، والنار ما تزال تتراقص خلفي ، كأنها تسخر من ضعفي ، أو تبكي على عرشٍ واهن. جلست في العتمة ، وأسندت رأسي إلى الجدار ، وبدأ حوار داخلي لا يقل ضراوة عن حواري مع بركاش.

قلت لنفسي :

أي ربّ هذا الذي لا يسمع ؟ أي إله هذا الذي لا يدافع عن نفسه ؟ كيف نمنح قداسةً لشيءٍ نصنعه بأيدينا ، ونطفئه بأنفاسنا ؟ أهذه هي العبادة ، أم هو الذلّ المقنّع ؟

تذكرت طفولتي ، حين كنت أرتجف أمام النار ، لا حبًّا لها ، بل خوفًا من صراخ أبي ، ومن سياط الكهنة ، ومن همسات الناس. لم يكن في قلبي يومًا إيمان صادق ، بل رهبة مصطنعة. وها هي الآن تتعرى أمامي ، كما يتعرى جسد مريض بعد طول ستر.

مرت الأيام بعد تلك الليلة ثقيلة كأنها محمّلة بأسئلة لا جواب لها. صرت أؤدي الطقوس ببرود ، أركع وأسجد ، وقلبي يحلّق بعيدًا ، يبحث عن إلهٍ لا يُرى ، ولا يُلمس ، ولا يُطفأ. إلهٍ لا يحتاج إلى زيتٍ مقدس ليبقى حيًّا ، ولا إلى أيدٍ مرتعشة لتحمي وجوده.

كنت أراقب الناس وهم يتدافعون إلى المعبد ، يحملون نذورهم ، ويهمسون بأمانيهم. رأيت في عيونهم الخوف ذاته ، واليأس ذاته ، والتعلق ذاته بسرابٍ يوهمهم بالأمان. أدركت أن المأساة ليست في عبادة النار ، بل في حاجة الإنسان إلى معبود ، أيًّا كان ، يعلّق عليه عجزه وخيبته.

وفي إحدى الليالي ، عدت إلى الغرفة الذهبية. وقفت أمام النار وحدي. لم أطفئها ، ولم أوقِدها. اكتفيت بالنظر إليها طويلًا ، ثم همست:

لستِ ربّي ، ولن تكوني.

لم يحدث شيء. لم تنطفئ ، ولم تثُر ، ولم تصعقني. بقيت كما هي ، تؤدي دورها الأبدي في تمثيلية البشر الكبرى.

خرجت وأنا أشعر بخفة غريبة ، كأنني تخلصت من قيدٍ ظلّ يطوّق روحي دهورًا. لم أكن أعرف من أعبد ، لكنني عرفت من لا أعبد. وتلك، في رحلتي الطويلة نحو الحقيقة ، كانت أول خطوة.

هكذا بدأت قصة شكوكي ، وهكذا انطفأت النار في قلبي ، وإن بقي لهبها متقدًا في المعابد . وما زلت ، إلى اليوم ، أسير في دروب السؤال ، أفتش عن إلهٍ لا يخاف السؤال ، ولا يحتاج إلى من يحميه من الريح.

# على تخوم النار والنور

## اعترافات سلمان في الطريق إلى الله

وتابع سلمان حديثه لصديقه عبد الله بن أبي الشاب المسلم ، وقد استوى الليل على عرشه ، وبسط جناحيه فوق الرمال والنجوم ، والنسيم البارد يمرّ على وجوههما كأنه يد تمسح آثار التعب والدهشة معًا . كان القمر معلقًا في كبد السماء ، كمرآة فضية تعكس ما في الصدور من أسرار ، فتنطلق الكلمات من فم سلمان مثقلةً بتاريخ طويل من الصمت ، مشبعةً بحنينٍ دفين ، ومخضبةً بقلق لا ينطفئ.

قال سلمان ، وقد أطرق قليلًا ثم رفع رأسه كمن يستجمع شتات روحه :

ومرّ عامٌ كامل يا عبد الله ، وأنا و بركاش نلهو بالنار إن أمِنّا عيون الرقباء ، ونمرح بشبابنا إن خلا القصر إلا منا . كنا نسرق من الزمن لحظاتٍ نعيشها بكامل نشوتها ، ونظن أن العالم خُلق لنا وحدنا ، وأن قلوبنا الصغيرة قادرة على احتواء الكون. كانت ضحكاتنا تتردد في أروقة القصر كصدى بعيد لفرحٍ لا يدوم ، وكنا إذا أشعلنا النار في الليالي الباردة ، جلسنا حولها ككهنةٍ صغار نعبد وهجها ، نحدق في لهيبها ونحسبه سر الحياة.

تنهّد، وكأن النفس خرجت من أعماق بعيدة ، ثم تابع :

ثم قال لي أبي ذات يوم ، وكان صوته يومها مزيجًا من الحزم والشفقة: يا ولدي ، حان وقت الذهاب إلى ضيعتنا الكبيرة في قرية بروي ، لجباية أموالها ومحاسبة عاملي عليها . غير أن مولانا كسرى يدعوني إلى قصره ليستشيرني في أمورٍ عرضت له ، وأنا من كبار مستشاريه كما تعلم.

سكت سلمان لحظة ، وكأن الكلمات تستعيد صداها في داخله ، ثم قال :

قلت لأبي : فأجّل سفرك إلى الضيعة حتى تعود من عند كسرى العظيم.

قال : ومن يدري ، يقصر غيابي أم يطول ؟ لهذا رأيت أن تذهب أنت عني إلى بروي ، تحاسب عاملها وتجبِي أموالها. قلت بدهشة مشوبة بالخوف : وهل أصلح لهذا يا أبت سواك ؟ قال وهو يبتسم تلك الابتسامة التي تخفي خلفها بحرًا من القلق : آن الأوان أن تتعلم يا ما بيه ، وكل ما أخشاه عليك طول الطريق ومشقة السفر.

وهنا ، يا عبد الله، شعرت لأول مرة بثقل المسؤولية ، كأنها حجر وُضع فوق صدري فجأة. كنت حديث العهد بالحياة الجادة ، غارقًا في لهو الشباب ، لا أعرف من الدنيا سوى قصري ، و خدمه ، وحدائقه التي تتدلى منها عناقيد الظلال.

قلت له : فاجعل لي مرافقًا في رحلتي يا أبت.

قال : اختر من تشاء من خدم القصر.

ولم أتردد ، قلت : آخذ بركاش.

رفع أبي حاجبيه دهشةً ، وقال: بركاش خادم المعبود يا ما بيه ! قلت بثقة من يعرف قلب صاحبه : إني أثق في بركاش لطول صحبتنا ، ولو سافر معي فلن تعدم المعابد كاهنًا يقوم بخدمتها حتى نرجع.

فكر أبي طويلًا ، ثم قال : ليكن. لكن كل ما أرجوه ألا تطيل المقام في بروي ، حتى لا يساور القلق أمك. وخذ عدتك للسفر ، وسأوصي بركاش بحسن خدمتك والقيام على رغباتك حتى تعود سالمًا.

## X

خرجت من القصر يومها يا عبد الله ، وأنا أحمل في صدري مزيجًا من الحماسة والخوف. كان الفجر قد بدأ ينسلّ من بين طيات الليل ، والسماء تشقّق أكمامها لتخرج منها خيوط الضوء الأولى. كانت المدينة تستيقظ ببطء ، ككائنٍ ضخم يفرك عينيه بعد نومٍ طويل.

سرت مع بركاش على ظهور الخيل ، نتبع طريقًا يمتد بين الحقول والأنهار الصغيرة ، تحفّه أشجار باسقة تنحني أغصانها كأنها تسجد للأرض. كان الطريق طويلًا ، تتعاقب فيه السهول والمرتفعات ، وتتناثر على جنباته القرى المتناثرة كخرزٍ في عقدٍ قديم.

بركاش كان صامتًا أغلب الوقت ، لكنه حين يتكلم ، يتكلم كمن يحمل حكمة السنين. قال لي ذات مرة ونحن نعبر جسرًا خشبيًا فوق نهر هادئ :

يا ما بيه، إن الطرق لا تُقاس بطولها ، بل بما تصنعه في قلوب السائرين عليها.

نظرت إليه متعجبًا ، و قلت : وما تصنعه هذه الطريق في قلبك ؟

قال: تصنع لي خوفًا ورجاءً معًا.

لم أفهم يومها مغزى كلماته ، لكنني الآن ، بعد أن تقلبت بي الأيام ، أدرك أن كل خطوة على ذلك الطريق كانت تمهد لزلزال داخلي ، سيهدم أصنامًا كثيرة في صدري.

X

وصلنا إلى بروي بعد أيام شاقة. كانت قرية كبيرة ، يلفّها سكون ثقيل ، وتنتشر بيوتها الطينية حول ضيعة واسعة تمتد حقولها إلى مدى البصر . استقبلنا العامل استقبال من يعرف قدر سيدي ، فانحنى احترامًا ، وراح يسرد الحسابات ، ويعرض الدفاتر ، ويعدد المحاصيل.

قضيت هناك ثلاثة أيام، راجعت فيها كل شيء ، وحاسبت الرجل حسابًا دقيقًا ، وتفقدت أحوال الفلاحين ، واستمتعت بمشهد الحقول وهي تستحم في ضوء الغروب ، فتتلون بلون الذهب الممزوج بالدم.

غير أن شيئًا غامضًا بدأ يتحرك في داخلي. كنت أرى الفلاحين يعملون من الفجر إلى الغروب ، وأسمع أنين الأرض تحت معاولهم ، وأحس بثقل العرق المتساقط من جباههم. وكنت أسأل نفسي : أي عدل هذا الذي يجعلنا نغرق في الترف ، وهم يغرقون في الكدح ؟

كانت تلك الأسئلة بذورًا أولى لقلقٍ سيكبر حتى يصير نارًا.

X

في طريق العودة ، يا عبد الله ، وقع ما كان أول سبيلي إلى الله.

كان المساء قد أرخى سدوله ، والسماء تلبدت بغيوم كثيفة تنذر بمطرٍ عاصف. كنا نسير في وادٍ ضيق تحفّه الصخور من الجانبين ، حين لمحنا من بعيد نور نارٍ خافت يتراقص بين الظلال.

قال بركاش : لعلها نار مسافرٍ أو ناسك.

اقتربنا بحذر ، فإذا برجلٍ مسنّ ، نحيل الجسد ، تغطيه ثياب بالية ، يجلس قرب نار صغيرة ، ويحدق في السماء كمن ينتظر جوابًا. كان وجهه شاحبًا ، وعيناه تلمعان بوميض غريب.

سلّمنا عليه ، فردّ السلام بصوت هادئ. دعانا إلى الجلوس ، فجلسنا. ناولنا خبزًا يابسًا وبعض التمر ، وقال: هذا كل ما أملك.

شكرته ، وقلت: ما الذي جاء بك إلى هذا الوادي في هذا الوقت ؟

قال : جئت أبحث عن الله.

هزّتني كلماته كما تهز الصاعقة شجرة وحيدة في صحراء. قلت متعجبًا: وأين فقدته ؟

ابتسم ابتسامة حزينة ، و قال: لم أفقده ، بل فقدت نفسي ، ومن وجد نفسه وجد ربه.

سكتُّ طويلًا ، ثم قلت: وكيف يُوجَد الله ؟

قال: بأن تُكسر الأصنام التي في داخلك ، قبل أن تكسر التي حولك.

نظر إليّ نظرة عميقة ، كأنه يرى ما وراء ملامحي ، ثم قال : أنت تحمل في قلبك نارًا يا بني ، فإن جعلتها تحرق غيرك ، أحرقتك ، وإن جعلتها نورًا ، أضاءت لك الطريق.

في تلك اللحظة ، شعرت بشيء ينفجر في صدري. كانت الكلمات تتساقط في أعماقي كالمطر على أرض عطشى ، تفتح فيها شقوقًا لم أكن أعلم بوجودها.

سألته: ومن أنت ؟

قال: رجل ضلّ طريقه طويلًا ، ثم وجده في لحظة صدق.

ثم قام، وألقى على النار حفنة من التراب ، فانطفأت. و قال: هكذا تنطفئ نار الدنيا ، وهكذا يشتعل نور الآخرة.

## X

انصرف الرجل في الظلام ، وبقيت أنا جالسًا مشدوهًا. التفتُّ إلى بركاش ، فوجدت الدموع تلمع في عينيه.

قلت: ما بك ؟

قال : كنت أعلم أن هذا اليوم سيأتي.

قلت بدهشة : أي يوم ؟

قال: يوم تفتح فيه عيناك على ما وراء القصر والضيعة و النار.

ومنذ تلك الليلة ، لم يعد قلبي كما كان. صرت أرى العالم بعيون أخرى . كل حجر في الطريق كان يسألني: إلى أين تمضي ؟ وكل شجرة كانت تهمس: من أنت ؟ وكل نهر كان يردد: لماذا خُلقت ؟

كنت أستيقظ في الليل فزعًا ، كأن يدًا خفية تهزني من سباتي ، و تقول: قم ، فإن الحياة ليست لهوًا طويلًا.

X

عاد سلمان إلى صمته، وقد امتلأت عيناه بوميضٍ حزين. كان عبد الله ينصت إليه مأخوذًا ، كأنما يسمع قصة ميلادٍ جديد ، لا حكاية سفر عابر.

قال عبد الله بعد طول سكوت:

تلك اللحظة يا سلمان ، هي بداية الطريق. من هناك يبدأ الإنسان رحلته الحقيقية.

ابتسم سلمان ابتسامة وادعة ، و قال:

نعم، ومن هناك بدأت رحلتي نحو الإسلام ، نحو النور الذي بدد ظلمات روحي ، وحررني من عبودية النار إلى عبودية الله الواحد.

وسكت الاثنان ، وقد ألقى الليل على قلبيهما عباءته الثقيلة ، بينما كانت النجوم تومض في السماء ، كأنها تشهد على ولادة قلب جديد ، وبدء حكاية لا تنتهي.

# بين نار المجوس ونور التوحيد

## السيرة العاصفة لسلمان الفارسي

جلسا متقابلين في ظل نخلةٍ باسقةٍ على أطراف مسجد رسول الله ﷺ، في ساعةٍ تميل فيها الشمس نحو الغروب ، وتذوب ألسنة الضوء على جدران الطين فتنساب كأنها دموعٌ ذهبية على خدود الزمن. كان سلمان الفارسي رضي الله عنه قد أسند ظهره إلى جذع النخلة ، وضم عباءته حول جسده النحيل ، بينما كان عبد الله بن أبي – ذلك الشاب الأنصاري الطاهر – يتكئ قريبًا منه ، يحدّق في وجه صاحبه كما يحدّق الظمآن في صفحة الماء ، مترقّبًا لحظة انبثاق الحكاية.

قال عبد الله ، وقد انحنى قليلًا إلى الأمام ، وفي صوته توقٌ طفولي ممزوج بخشوع المؤمن:

يا أبا عبد الله، حدّثني عن نفسك ، عن رحلتك التي لو نُقلت عن غيرك لظنّها الناس أسطورة ، و أدخلوها في كتب العجائب لا في سجلّ تاريخ الإسلام المجيد.

ابتسم سلمان ابتسامةً هادئة ، شابها حزنٌ دفين ، كأنها بقايا رمادٍ على أطلال نارٍ قديمة. ثم قال بصوتٍ خفيضٍ يحمل رنين الذكريات:

يا عبد الله ، ما أبعد الفرق بيني وبين من كنتُه! كنتُ عبدًا في قيود المجوسية ، فصرتُ حرًّا بكلمة التوحيد. كنتُ أعيش في جسدٍ يتحرّك ، ولكن روحي كانت في سجنٍ من نار ، حتى أطلقها الله إلى فضاء النور.

سكت قليلًا ، كأنما ينقّب في طبقات روحه عن مشاهد دفنتها الأيام ، ثم أردف :

كنتُ ابنَ رجلٍ من أشراف الفرس ، من أهل قرية جي التابعة لمقاطعة أصبهان . أحبني أبي حبًّا شديدًا ، حتى جعلني قَيِّمًا على بيت النار ، أحرسها ليلًا ونهارًا، وأوقدها ، وأرعاها ، وأخشى عليها من أن تخبو . كنتُ أظن أن تلك النار هي سرّ الوجود ، وأن لها القدرة على منح

الحياة وسلبها. يا لعبث الإنسان حين يولد في بيئة مغلقة ، فيظن قيوده أجنحة ! أجنحة طائر لا يطير !

تنهد عبد الله وقال :

لقد كنّا في يثرب نسمع عن قسوة كسرى وجبابرة الفرس ، وعن اضطهادهم للنصارى ، وعن المذابح التي كانت تُرتكب في القرى النائية.

هزّ سلمان رأسه ببطء ، و قال :

صدقتم. ولكن حدث في زمن الملك بهرام جور ما غيّر وجه تلك القسوة قليلًا ، وما كان ذلك إلا بسبب امرأة ، جارية نصرانية ذات جمالٍ يأسر الأبصار ، وذكاءٍ يربك العقول.

وسكت لحظة ، ثم بدأ يسرد الحكاية بصوتٍ يموج بين السرد والتأمل:

كنتُ يومها في ريعان شبابي ، وقد أرسلني أبي إلى ضيعته في قرية بروى، أجبي له أموالها ، وأصلح شؤونها. وبعد أن أنجزتُ المهمة ، هممتُ بالعودة إلى جي برفقة خادمي وصديقي بركاش. وفي الطريق ، مررنا بقريةٍ صغيرةٍ تتوسّطها كنيسة متواضعة ، ينبعث منها صوت الترانيم كأنه أنينٌ خفيّ من أعماق الأرض.

توقّفت قدماي دون إرادةٍ مني. شيءٌ ما جذبني إلى ذلك المكان. كان قلبي ، لأول مرة ، يسمع نداءً غير نداء النار.

دخلتُ الكنيسة ، فرأيتُ قومًا ركّعًا سجّدًا ، وجوههم مطمئنة ، وأصواتهم تهمس بالدعاء. لم يكن في وجوههم ذاك التجهّم الذي اعتدته في معابد المجوس ، بل نورٌ ساكنٌ ، وسكينةٌ عميقة.

سألتُ عن دينهم ، فحدّثوني عن المسيح ، وعن الإله الواحد ، وعن الرحمة ، وعن المحبة. شعرتُ أن شيئًا في داخلي ينكسر ، كقيدٍ قديمٍ صدئ. قلت في نفسي: هذا خيرٌ مما نحن فيه.

ومنذ تلك اللحظة ، بدأتُ رحلتي في البحث ، رحلةً طويلةً محفوفةً بالخوف والجوع والتيه ، ولكنها كانت أيضًا مشبعةً بالأمل.

قاطعه عبد الله وقد اتسعت عيناه :

أكان ذلك أوّل شرخٍ في جدار المجوسية داخل روحك ؟

أومأ سلمان :

نعم، كان الشرخ الأول. لكن العاصفة الكبرى جاءت مع قصة بهرام جور والجارية النصرانية.

X

كان بهرام جور ملكًا شديد البطش ، عاشقًا للهو والنساء. وقع قلبه في أسر جارية نصرانية ذات جمالٍ نادر وذكاءٍ لافت. حاول الوصول إليها ، فامتنعت ، وأغلقت عليه أبوابها. فاستشاط غضبًا ، وأمر بقتلها في ساعةٍ من القهر.

قال له وزيره ، وقد ارتعد صوته :

يا مولاي، إن هذه الجارية تزعم أن ربها سينزل على المملكة أهوالًا إن مسّها أذى.

ضحك الملك ساخرًا و قال :

إما أن تسلّم نفسها ، وإما أن تُقطع عنقها ، ومن يتشفع لها لقي مصيرها.

لكن الوزير ظلّ يلحّ عليه :

إنما أخشى على المملكة من كهانتها. تزوّجها ، يا مولاي ، واتقِ شرّها.

تردّد الملك، ثم وافق على مضض. غير أن الجارية اشترطت عليه شرطًا عظيمًا: أن يخفف اضطهاد النصارى ، وأن يسمح لهم ببناء الكنائس وإقامة شعائرهم.

وفي اللحظة التي همّ فيها السياف بقطع رأسها ، اضطربت الأرض، ورعدت السماء ، وورد الخبر بهزيمة جيش الفرس أمام الرومان. فارتعد قلب الملك ، ورأى في ذلك نذيرًا ، فأطلق سراحها ، وتزوجها ، ووفى بشيءٍ من وعده.

قال سلمان :

كان ذلك الحدث كزلزالٍ روحيّ في نفوس كثيرين ، وأنا منهم. لأول مرة ، رأيتُ سلطان النار يتراجع أمام دعاء امرأة موحّدة. عندها أدركتُ أن ما نعبده ليس إلا وهمًا ، وأن القوة الحقيقية كامنة في الإيمان.

ساد الصمت قليلًا. كانت نسمات المساء تعبث بأطراف العباءة ، وتحمل معها عبق الأرض الرطبة.

ثم قال سلمان ، وقد لمع في عينيه بريق الذكرى:

يا عبد الله ، من تلك اللحظة بدأتُ أبحث عن الحق. تركتُ بيت أبي ، وقطعتُ الفيافي والقفار ، من راهبٍ إلى راهب ، ومن ديرٍ إلى دير ، أطلب نورًا يبدّد ظلمات قلبي. كنتُ أعمل خادمًا لأشتري قوت يومي ، وأتحمّل المهانة في سبيل المعرفة. وكلما ظننت أنني بلغتُ النهاية ، دلّني شيخي على آخر ، حتى قادني القدر إلى آخر رهبان النصارى ، الذي قال لي وهو يحتضر: قد أظلّك زمان نبيّ يخرج من أرض العرب ، بين كتفيه خاتم النبوة ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة.

انحبس صوت سلمان لحظة ، ثم تابع :

خرجتُ أبحث عن هذا النبي ، فوقعتُ في الأسر ، وبِعتُ عبدًا في يثرب ، حتى ساقني الله إلى المدينة ، لأسمع منه كلمة الحق ، فأعرفه ، وأسجد بين يديه ، وأقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله.

اغرورقت عينا عبد الله بالدموع ، وقال بصوتٍ مرتعش:

سبحان من ساقك من نار فارس إلى نور محمد.

ابتسم سلمان ، ومسح دموع صاحبه ، و قال :

إنها رحلة الروح ، يا عبد الله ، من عبودية البشر إلى حرية الله. وما أعظمها من رحلة.

ثم سكتا طويلًا ، كأن كليهما يخشى أن يبدّد الصمتَ كلمةٌ عابرة. كانت السماء قد أرخَت ستار الليل ، وتلألأت نجومها كأنها شهودٌ على عهدٍ جديدٍ بين الأرض والسماء.

وفي تلك اللحظة ، أدرك عبد الله أن ما سمعه ليس مجرد قصة ، بل ملحمة إنسانية ، تتصارع فيها الظلمات والنور، وتنتصر فيها الروح على القيود ، ليظل سلمان الفارسي شاهدًا خالدًا على أن طريق الحق ، وإن طال ، لا يضلّ من صدق في طلبه.

# على تخوم النار والجرس

## اعترافات " مابيه " في مساء التحوّل

كان التاريخ ، حين يطويه الغبار ، يخلّف في الروح شقوقًا خفيّة لا تُرى ، لكنها تنبض في الأعماق كجمرٍ تحت الرماد. وفي تلك الشقوق ، حيث تتصارع المعتقدات ، وتتهجّى الأرواح أسماءها الأولى ، وُلدت حكايتي ، أو لعلّها بدأت يوم عبرتُ عتبة الكنيسة الصغيرة في قرية منسية على هامش السلطان والملك ، حيث لا تصل العيون إلا حين تريد البطش.

X

لم يكن الملك بهرام جور - رغم جبروته وبطشه - سوى رجلٍ خائف ، يتقن ارتداء الأقنعة أكثر مما يتقن الصدق مع نفسه. كان في داخله طفلٌ مذعور ، يبحث عن دفءٍ مستحيل في حضن امرأة ، فوجد في زوجته النصرانية ما يشبه الملاذ المؤقت. أحبّها حبًا مسرفًا ، حتى أذلّ لأجلها تقاليد آبائه ، وأباح للنصارى ما لم يُبحه أحدٌ من ملوك فارس قبلَه . قامت الكنائس في عهده كما تنبت الأزهار في أرضٍ عطشى ، بل سمح لها أن تشيّد كنيسة صغيرة في حديقة قصره ، على مرأى من النار المقدّسة التي كان الكهنة يزعمون أنها روح الكون وسرّ بقائه.

كانت تلك الكنيسة ، في صمتها النقي ، صفعة على وجه الطقوس العتيقة. وكانت زوجته تصلي فيها ، كل صباح ومساء ، لا لتعبد فحسب ، بل لتستدرج قلب الملك إلى إيمانها. لكنها ماتت قبل أن تبلغ غايتها ، ومات بعدها بهرام جور ، تاركًا البلاد على فوهة تناقضٍ رهيب.

جاء يزدجرد ، ابنه ، فمسح بقبضته آثار ذلك التسامح ، وعاد إلى سياسة الأجداد: اضطهادٌ ، وحرق كنائس ، وتشريد قساوسة ، إلا في قرى نائية محددة ، تُترك للنصارى كجزرٍ محاصرة ، كأنها اعتراف متردد بأن القمع الكامل مستحيل.

وكانت الكنيسة التي دخلتها يومها تقع في واحدة من تلك القرى.

# X

كنت أعود من رحلة صيد مع بركاش ، خادمي وصديقي ، حين اخترقت سمعي ألحان لم أعرف لها شبيهًا. لم تكن صاخبة كطبول معابد النار ، ولا صارخة كنداءات الكهنة ، بل كانت حزنًا ناعمًا ، ينساب كدمعةٍ على خدّ الليل. توقفت قدماي من تلقاء نفسي ، ومال قلبي نحو مصدر ذلك النغم كما تميل الورقة إلى مجرى الماء.

قلت لبركاش :

انتظرني عند الباب. أريد أن أرى ما يصنعون في معابدهم.

نظر إليّ طويلًا ، وفي عينيه خوف صادق. قال محذّرًا :

يا مابيه ، هذا أمر لن يرضى عنه أبوك إن علم به.

ابتسمت بمرارة :

لن يعلم.

قال مترددًا :

ولو سألني... لا أقدر أن أكذب.

وضعت يدي على كتفه ، وقلت برفقٍ أخفي به اضطرابي :

بركاش ، ألم نتفق منذ زمن أن نخلع هذه الألقاب حين نتحدث ؟ أنت بركاش ، وأنا مابيه . لا سيدي ولا عبد. ألست صديقي ؟

قال بصوتٍ صريح :

بلى يا مابيه.

إذن فادخل معي. نرى ونسمع ، ثم نتابع طريقنا. وأبي ، وما أظنه سيسأل عن شيء لا يخطر له على بال ، لن يعلم شيئًا.

ضحك ضحكة قصيرة و قال :

نكذب إذن ؟

ضحكت بدوري :

وهل تعتقد أن الكذب يكون بالكلمات فقط ؟ ماذا تسمي عبثك بالنار في غرفتها المقدسة ، ثم ركوعك أمامها حين يدخل أبي ؟ الكذب بالفعل أعمق وأثقل.

سكت لحظة، ثم قال :

صدقت.

دخلنا الكنيسة.

كان الضوء خافتًا ، يتسلّل من نوافذ صغيرة عالية ، فيرسم على الجدران أشباحًا ذهبية. رائحة البخور لم تكن حادّة كدخان النار ، بل لطيفة ، كأنها صلاة معلّقة في الهواء. رأيت رجالًا ونساءً وأطفالًا ، يقفون في صفوف منتظمة ، وجوههم متجهة نحو مذبح بسيط تعلوه صورة لرجل مصلوب. لم أفهم الرمز حينها ، لكنني شعرت أن في المشهد كله قوة غامضة تزلزل القلب.

بدأت التراتيل . لم تكن كلماتها مفهومة لي ، لكن موسيقاها اخترقت صدري ، فأحسست أن شيئًا في داخلي ينكسر ، وشيئًا آخر يولد.

همست في نفسي :

أيكون هذا هو الإله ؟ أن يدخل إلى القلب دون إذن ، بلا سوطٍ ولا نار ؟

بعد الصلاة، تقدّمت نحو القس ، شيخ وقور بلحية فضية ووجهٍ تكسوه سكينة غريبة. سألته عن دينهم ، عن إلههم ، عن معنى الألم الذي يقدّسونه ، والحب الذي يجعلونه طريقًا للخلاص.

كان يجيبني بصبر ، وكل كلمة تسقط في قلبي كقطرة نور. حدّثني عن إلهٍ واحد ، لا يحتاج إلى نار ليُعبد ، ولا إلى دمٍ ليُرضى ، إلهٍ يرى في الإنسان ابنه ، لا عبده. وحين خرجت من الكنيسة ، كنت أشعر أنني لست الشخص نفسه الذي دخل.

نظرت إلى بركاش . كان وجهه شاحبًا ، وعيناه زائغتين كأنهما أبصرتا سرًا لا يُحتمل.

قلت له :

ما رأيك؟

قال بصدقٍ عارٍ :

والله يا مابيه ، إن دين هؤلاء خير من ديننا الذي نجنّ عليه.

سكتُّ لحظة ، ثم قلت وقد انفجرت الكلمات من صدري :

فلماذا نعود إذن إلى جي ؟ لنبقَ هنا ، نتعلم منهم ، نخدم إلههم بدل أن نخدم نارًا لا تسمع ولا ترى.

ارتعش بركاش ، وقال محذّرًا:

كأنك لا تعرف أباك. هو قادر على أن يستعدي الملك على الكنائس كلها إن علم بكفرك. عبادة النار دين الملك ، ولن يرضى أن ينسلخ منه أبناء الكهنة ، وخاصة من هم مثلك ، مرشحين لمنصب الكهانة.

وقفت حائرًا. كان في صدري صراع يشبه زلزالًا صامتًا. سألت:

فما العمل؟

قال بعد تفكير طويل :

نعود إلى قريتنا ، ونعبد إله النصارى في السر.

سكت.

أكملتُ عنه ، كأنني قرأت ما في رأسه :

حتى يموت أبي... وأنال حريتي... وأنطلق إلى حيث النصارى... فألزم قساوستهم، وأغدو واحدًا منهم.

نظر إليّ بدهشة ، ثم قال :

كأنك تنطق بما في قلبي.

X

ومنذ تلك الليلة ، بدأت حياتان تسكنان جسدي : حياة الظاهر ، حيث أركع أمام النار ، وأرتدي ثوب الطاعة ، وحياة السرّ ، حيث أصلي لإله لا يُرى ، وأبكي في ظلام غرفتي خوفًا ورجاءً.

كنت أقف أمام النار ، أرفع يديّ كما يفعل الجميع ، لكن قلبي كان يتجه إلى مكان آخر. أردد تراتيل الكنيسة في داخلي ، وأستعيد صوت القس ، ونظرات الأطفال وهم يبتسمون في صلاتهم. كنت أشعر أنني خائن في نظر قومي ، ومولود جديد في نظر نفسي.

أما بركاش، فكان شريكي في هذا السرّ الثقيل. كنا نلتقي ليلًا ، نهمس بدعائنا ، ونرتجف مع كل خطوة تقترب من باب غرفتنا. كان

الخوف يسكن عظامنا ، لكنه لم يكن خوف الجبناء ، بل خوف من عرف الحقيقة ، وخشي أن يُقتل قبل أن يبلغ تمامها.

وفي تلك الليالي ، كنت أغوص في أعماقي ، أفتّش عن معنى وجودي. كنت أسأل:

هل خُلقتُ لأكون كاهنًا للنار ؟ أم شاهدًا على انطفائها ؟ هل الإيمان ميراث، أم اختيار ؟

كانت الأسئلة تحاصرني ، لكنني كنت أشعر أنني ، لأول مرة، أملك ذاتي.

X

مرّت السنوات ثقيلة ، كأنها تمشي على صدري لا على الأرض. أبي يزداد صرامة ، والكهنة يشتدّون تعصّبًا ، والملك يزدجرد يضرب بيدٍ من حديد. الكنائس تحترق ، والقساوسة يُنفون أو يُقتلون والنصارى يعيشون كأشباح.

وكنت أنا ، ابن الكاهن الأكبر ، أحمل في صدري دينًا مطاردًا.

أحيانًا ، كنت أرى في عيني أبي شكًّا خافتًا. كان ينظر إليّ طويلًا حين أركع أمام النار ، كأنه يتفحّص صدقي. كنت أرتجف ، وأضاعف خشوعي ، حتى أخشى أن يتحوّل تمثيلي إلى عبادة حقيقية. لكن شيئًا في داخلي كان يصرخ :

لا... ليس هنا موطنك.

X

وحين مات أبي ، لم أبكِ كما يبكي الأبناء عادة. بكيت لأن قيدًا سقط ، ولأن طريقًا انفتح. وفي تلك الليلة ، جمعت ما أستطيع حمله ، ونظرت إلى بركاش ، و قلت :

حان الوقت.

ابتسم ، وكانت في ابتسامته دموع مؤجلة :

أخيرًا.

تركنا جي خلفنا ، كما يُترك قبر. ومضينا إلى القرى النائية ، نتنقّل من كنيسة إلى كنيسة ، حتى انتهى بنا المطاف في دير صغير بين

الجبال. هناك ، خلعت اسمي القديم ، وارتديت اسمًا جديدًا ، كأنني أخلع جلدي كله.

وفي صمت الدير ، بين الصلوات والعمل ، بدأت أتعلم معنى الطمأنينة. لم تعد النار تلاحقني في أحلامي ، ولم يعد صوت أبي يوقظني مذعورًا. صرت أرى العالم بعينين جديدتين ، وأفهم أن القوة ليست في البطش ، بل في الرحمة ، وأن الإيمان ليس ميراث دم، بل اختيار روح.

وهكذا، على تخوم النار والجرس ، وُلدت حكايتي. حكاية رجلٍ تجرّأ أن يصغي إلى قلبه في زمنٍ كان الإصغاء فيه جريمة. وربما ، ذات يوم ، حين يهدأ غبار التاريخ ، سيعرف الناس أن التحوّلات الكبرى تبدأ بخطوة خائفة نحو باب كنيسة صغيرة ، في قرية منسية.

# رحلة سلمان الفارسي في البحث عن الحقيقة

لم تكن تلك الكلمات التي قالها بركاش في تلك الليلة المقمرة مجرد وعد صداقة ، بل كانت عهداً مكتوباً بالدم والدمع ، نقشاً أبدياً في لوح القدر:

عندها أتبعك يا مابيه، لا أفارقك ولا أفارقهم ساعة من زمان.

قالها وهو ينظر إليّ بعينين يختلط فيهما الخوف بالأمل ، والرهبة بالرجاء ، وكأنما كان يستشرف ما تخبئه الأيام من عواصف لا تبقي ولا تذر. كانت الريح تعصف في نوافذ الدار ، تحمل معها صرير الزمن ، وتُشعرنا أن شيئاً عظيماً يتشكل في الغيب ، ينتظر لحظة الانفجار.

كتمنا أمرنا شهرين أو ثلاثة ، نعيش في قلق دائم ، نخطو على رؤوس الأشواك ، نخشى الهمسة كما نخشى الصيحة ، نتحسس وجوهنا في المرايا كأننا غرباء في بيوتنا. كان أبي شديد البأس ، غليظ القلب في أمور الدين ، يرى في كل خروج عن معتقد الآباء خيانة تستوجب القصاص . وحين علم بأني أفلتُ إذا سافر إلى عاصمة البلاد ، وأذهب إلى كنيسة النصارى ، اشتعل غضبه كبركان هائج ، فحبسني وبركاش مقيدين بالسلاسل والأصفاد.

كانت الليالي في السجن بطيئة ثقيلة ، كأن الزمن فيها يتحجر. كانت القيود تأكل من معاصمنا ، والظلام ينهش من أرواحنا. كنت أسمع أنين بركاش في السكون ، فأزداد ألماً ، وأستحضر في ذهني مصيره المحتوم : الإعدام حرقاً.

كنت أعرف أن أمي لن تقف ساكنة وهي ترى ابنها الوحيد يقاد إلى المحرقة بأمر الملك . كانت أمّي امرأة من نور ، قلبها أوسع من السماء ، وصبرها أعمق من البحر . سهّلت لي ولصديقي سبيل الفرار ، دسّت المفاتيح في ثنايا الخبز ، وبكت وهي تفعل ، كأنها تسلّم ولدها للمجهول.

## X

خرجنا ليلاً ، والقمر شاهد صامت ، والنجوم مصابيح طريقنا. كنا نمشي وقلوبنا تركض ، نخشى وقع الأقدام خلفنا ، ونحسب كل ظلّ عدواً. لم يكن معنا إلا ما يسد الرمق ، وقليل من المال ، وكثير من الأمل.

X

سألني عبد الله بن أبي ذات مساء ونحن نستظل تحت شجرة يابسة:

وأين ذهبتما والملك يطلبكما في كل مكان ؟

قلت، وأنا أحدق في الأفق البعيد حيث كانت الشمس تغرب بطيئة حزينة:

ذهبنا خفية إلى تلك الكنيسة التي غيّرت زيارتها حياتي كلها. سألتُ أسقفها عن أصل دينهم ، فقال : يا ولدي ، إن أصل المسيحية في الشام حيث ولد السيد المسيح ، وهناك يُعبد.

كنت كالغريق الذي وجد خشبة خلاص، فسألته بلهفة :

وددت أن أبقى معكم ، ولكن أبي لن يتركني ، وإني ذاهب وصاحبي من فورنا إلى الشام ، فإلى من تعهد بي سيدي م،ن أساقفة الشام ؟

قال :

إذا بلغت مدينة تدعى حوران ، فاذهب إلى أسقف كنيستها ويدعى سفرنيوس ، فهو أعلم أهل الشام بالنصرانية ، فأقم معه.

وهكذا بدأت رحلتنا الكبرى.

يا عبد الله ، لا تدري ما الرحلة من أرض فارس إلى الشام. إنها ليست مجرد مسافة تُقطع ، بل دهور من الخوف ، وأودية من الجوع ، وليالٍ من الرعب. تجار الرقيق يتربصون بالمسافرين العزل في كل منعطف ، كأنهم ذئاب بشرية. والسعيد من يسافر في قافلة يحرسها الجند ، وما كان ذلك في مقدورنا. بلغنا حوران بعد شهور طويلة ، شحب فيها وجهي ، ونحل جسدي ، لكن روحي كانت أكثر توهجاً من أي وقت مضى.

دخلنا على أسقفها سفرنيوس ، فكان مشهداً لا يُنسى. رجل قصير القامة ، سمين ، ذا كرش رجراج ، وجهه كأنه رحى الطحن ، لوجنات

لامعة وردية ، وضحكة عالية مجلجلة ، تجردت من وقار رجال الدين . قال وهو يضحك حتى يهتز كرشه :

أهلاً بكما في كنيستي ، ستتعلمان كل ما تتوق إليه روحيكما ، ولكن عليكما بالصبر.

في صوته دفء ، لكن في عينيه بريق حذر. قلت :

لسنا طامعين في منصب ، إنما نريد خدمة الرب وخدمة الناس.

رمقني مليّاً ثم قال :

إذا أطلعتماني، تفتحت لكما أبواب الدنيا والآخرة.

تلك الليلة لم أنم. ظللت أفكر في معنى الآخرة ، وفي مصير الإنسان ، وفي حقيقة الدين. كانت أسئلة تتوالد في عقلي كما تتوالد النجوم في السماء . كنت أشعر أني أسير على خيط رفيع بين الإيمان والشك ، بين الطمأنينة والقلق.

مرت الأيام ، وبدأنا نخدم الكنيسة ، نكنس ساحتها ، ونساعد فقراءها ، ونرافق الكهنة في زياراتهم . كنت أرى البؤس في عيون الناس ، وألمس الجوع في أيديهم ، وأسمع الدعاء في أنفاسهم . وكنت أقول في نفسي:

ليس الدين طقوساً تُؤدى، بل رحمة تُعاش.

غير أن شيئاً في أعماقي لم يكن مستقراً. كنت أرى في تصرفات الأسقف شهوة خفية للمال ، ونزوعاً إلى التسلط . كان يجمع التبرعات باسم الفقراء ، ولا يصل منها إلا الفتات . وكنت أتساءل :

أهذا هو طريق الرب ؟ أم أن البشر يفسدون حتى المقدسات ؟

كان الحوار الداخلي يمزقني. كنت أستعيد طفولتي في فارس ، وصلاة المجوس أمام النار ، وهيبة الطقوس القديمة ، ثم أقارنها بما أراه هنا ، فلا أجد اليقين الذي أبحث عنه.

قلت لنفسي ذات ليلة :

يا سلمان ، إنك لم تهرب من سجن لتدخل سجناً آخر. إن قلبك لا يطمئن إلا إذا لامس الحقيقة عارية من كل زيف.

وكنت أردد قول الشاعر:

ومن لم يذق مُرَّ التعلمِ ساعةً  تجرّع ذلَّ الجهل طولَ حياته

فآليت على نفسي أن أصبر ، وأن أتابع السير، مهما طال الطريق.

مرت سنوات ، وأنا أتنقل بين الأساقفة والرهبان ، من حوران إلى الموصل ، ومن الموصل إلى نصيبين ، ومن نصيبين إلى عمورية. في كل مدينة شيخ ، وفي كل دير حكيم ، وفي كل قلب حكاية. تعلمت الصمت ، وتعلمت الإصغاء ، وتعلمت أن الحقيقة لا تُعطى دفعة واحدة ، بل تُكشف طبقة بعد طبقة ، كما تُقشر ثمرة الرمان.

وكان في كل مرحلة سؤال جديد ، وفي كل سؤال جرح جديد، حتى صرت كمن يحمل خريطة لا تنتهي.

وفي عمورية ، التقيت راهباً شيخاً ، كان وجهه يضيء بنور غريب. قال لي يوماً :

يا بني، لقد أظل زمان نبي يُبعث بدين إبراهيم ، يخرج من أرض العرب ، بين حرتين ، يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة.

وقعت كلماته في قلبي كالصاعقة . شعرت أن الأرض تميد بي.

قلت:

وأين أجد تلك الأرض ؟

قال :

في جزيرة العرب.

ومنذ تلك اللحظة ، صار قلبي مشدوداً إلى الجنوب ، إلى صحراء لا أعرفها ، لكنها تعرفني. غير أن الأقدار شاءت أن أُباع عبداً ، وأن أقاد في قوافل الرق إلى يثرب. هناك، وتحت نخلها الباسق ، التقيت بالنبي محمد ﷺ، فوجدت فيه ما كنت أبحث عنه طوال عمري : السكينة ، واليقين ، والنور.

وحين وضعت رأسي بين يديه ، وبكيت ، شعرت أن كل الطرق التي سلكتها لم تكن إلا جسوراً إليه.

وهكذا انتهت رحلة ، وبدأت رسالة.

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومِ  فلا تقنعْ بما دونَ النجومِ

فطعمُ الموتِ في أمرٍ حقيرٍ  كطعمِ الموتِ في أمرٍ عظيمِ

كانت رحلتي من النار إلى النور ، ومن الشك إلى اليقين ، ومن العبودية إلى الحرية . وكانت قصتي شاهداً على أن من صدق في طلب الحقيقة ، صدقته الحقيقة ، ولو بعد حين.

# أسرار الطاعة وحدود السؤال
## اعترافات سلمان في ظلال كنيسة حوران

في تلك البقعة المنسية من أطراف الأرض ، حيث تتعانق الحجارة العتيقة مع الرياح القادمة من بطن الصحراء ، وحيث تتكئ الكنيسة على تاريخٍ مثقل بالصلوات والدموع والاعترافات ، بقينا مع الأسقف في كنيسة حوران . كانت الأيام تمضي بطيئة ، ثقيلة الخطى ، كأنها تحمل على ظهورها أسرارًا لا تريد أن تُقال ، وأحمالًا لا ترغب أن تُرى . ومع مرور الزمن ، تكشّف لنا من أفعال الأسقف ما نفرنا منه ، وراح يوقظ في صدورنا شكوكًا كانت في البدء همسًا خافتًا ، ثم ما لبثت أن صارت صراخًا مكتومًا يضج في الأعماق.

كنتُ إذا كلّمته في أمرٍ مما يحكّ في صدري ، ويخدش طمأنينتي ، وينغّص عليّ صفو الإيمان ، قال لي بنبرة هادئة متعالية ، كأنها صدى جبلٍ يتكلم :

يا ولدي ، هذه أسرار الكنيسة ، ولن يدركها عقلك إلا إذا مرّنت نفسك على الطاعة ، وكففت عن كثرة الأسئلة.

كان قوله يسقط عليّ كالمطر البارد في ليالي الشتاء ، لا يرويني ولا يدفئني ، بل يزيدني ارتجافًا وحيرة . فأجيبه :

يا أبانا ، لا أرى سرًا في هذا الذي تفعله. إنني لا أرى إلا مالًا يُجمع ، وأبوابًا تُغلق ، ووجوهًا شاحبة تعود أدراجها خائبة.

فيردّ وقد ضاقت عيناه :

إذن فألزم طاعتي.

تلك الكلمة : الطاعة .كم من الدماء سالت باسمها ، وكم من العقول أُطفئت ، وكم من القلوب أُخمد نورها تحت ظلها الثقيل. كنت أسمعها ، فتتردد في رأسي كوقع المطارق على الحديد: طاعة... طاعة... طاعة... حتى أكاد أفقد قدرتي على التمييز بين الحق والباطل.

ذات مساء ، وقد ازدحمت الكنيسة بالناس ، رجالًا ونساءً وأطفالًا ، بسطوا أيديهم المرتعشة ، ورفعوا عيونهم الذابلة إلى السماء ،

يستنجدون برحمة لا تكاد تنزل. كنت أرى في وجوههم قصصًا كاملة من الفقر والقهر والحرمان. فقلت له بعد انفضاض الجمع:

أعذرني يا سيدي إن قلت: إنني أراك تأمر الناس بالصدقة ، فإذا استجابوا لك وجمعوا للكنيسة ما تريد من المال ، لا تنفقه على المساكين من أهل حوران الذين يتوفدون علينا طالبين للصدقة.

توقّف قليلًا ، كأنما يبحث عن كلماتٍ تناسب مقامه، ثم قال:

–يا ولدي، وهل تُعطى الصدقة لكل من يطلبها ؟ إنني أعرف الأسر الفقيرة المحتاجة ، فأزورها سرًّا ، وأعطيها ما هي في حاجة إليه.

قلت ، وقد خنقني الغضب المكبوت:

كثيرون ممن يترددون على الكنيسة فقراء محتاجون ، ومع هذا فهم لا ينالون من رفدك شيئًا.

هزّ رأسه ساخرًا و قال :

هؤلاء يخدعونك يا سلمان ، هؤلاء كاذبون مخادعون.

لم أقتنع بما قال ، غير أنني تمتمت :

لعلهم كذلك يا سيدنا ، لعلهم كذلك.

لكن قلبي لم يصدّق ، وروحي لم تطمئن ، وعقلي ظلّ يقاوم هذا التبرير الواهن.

## X

كانت ليالي حوران ثقيلة ، إذا أرخى الليل سدوله ، سكن كل شيء إلا قلبي. كنت أجلس في صومعتي الصغيرة ، على ضوء سراجٍ خافت ، أستعيد تفاصيل النهار ، وأقلب الوجوه التي مرّت أمامي : تلك المرأة التي حملت طفلها المريض ، والرجل الذي باع عباءته ليشتري خبزًا ، والعجوز التي استندت إلى عصاها وهي تبكي. أكنتُ مخطئًا في شكي ؟ أم أن في الأمر ما هو أعمق من ظاهر الطاعة ؟

دار في داخلي حوار لا يهدأ :

يا سلمان ، أأنت متكبر حتى تظن نفسك أعلم من الأسقف ؟ أم أنك مخلص حتى تخاف أن تُستغل دموع الفقراء ؟ أين تقف بين الطاعة والعقل ؟ وأيّهما أولى بالاتباع ؟

كنت أردد في سري قول الشاعر:

إذا لم يكن للمرء عقلٌ يهديه  تقاذفته الأهواء في كلّ موضعِ

وقول الحكيم :

" من أطاع بلا وعي ، عاش عبدًا ، ومن عصى بلا بصيرة ، عاش تائهًا.

وفي تلك الليالي ، كانت تتجسد في ذهني صور الأنبياء والحكماء ، أولئك الذين واجهوا الطغيان بالسؤال ، لا بالسيف ، وبالحق ، لا بالصمت. فكنت أقول لنفسي : لعل السؤال فريضة ، كما أن الطاعة فريضة ، ولكن لكلٍّ موضعه وحدّه.

X

مرت الأيام ، وتكاثرت الوقائع. رأيت كيف تُغلق خزائن المال بإحكام ، وكيف تُشدد الحراسة عليها، بينما يبقى الفقراء على الأبواب. رأيت كيف تُنظم الولائم للأساقفة والزوار الكبار ، وتُفرش الموائد العامرة ، فيما يتضور الأطفال جوعًا خلف الجدران . وكان كل ذلك يغلي في صدري كمرجلٍ لا يجد متنفسًا.

وفي أحد الأيام ، لم أتمالك نفسي ، فقلت له بلهجة حاسمة :

يا أبانا ، إن الله لم يأمرنا بالطاعة العمياء ، بل أمرنا بالتبصر والتفكر. ألم يقل الحكماء : اسأل لتعلم ، ولا تسكت فتموت جهلًا ؟

نظر إليّ طويلاً ، وفي عينيه بريق غامض ، ثم قال:

يا سلمان، إن كثرة السؤال تورث الشك ، والشك يقتل الإيمان.

أجبته:

بل الصمت عن الظلم هو الذي يقتل الإيمان.

ساد صمت ثقي ل، كأن جدران الكنيسة نفسها تحبس أنفاسها.

X

بدأتُ أراقب أكثر ، أتحرى خفية ، أزور بيوت الفقراء ، وأستمع إلى شكواهم. كانوا يقسمون أن لا أحد يزورهم ، ولا تصلهم صدقة ، وأن ما يُقال لهم مجرد وعود تتبخر. عندها ، ترسخت في قلبي قناعة لا رجعة

عنها : أن بين القول والفعل هوة سحيقة ، وأن الطاعة التي تُبنى على إخفاء الحق ليست طاعة ، بل عبودية.

وفي إحدى الليالي، رأيته يدخل غرفة المال وحده ، ويغلق الباب بإحكام. كان في مشيته تردد ، وفي وجهه قلق. أحسست أن شيئًا جللاً يُدار في الخفاء . لم أتبعه ، لكن تلك اللحظة حفرت في نفسي أثرًا عميقًا.

عدت إلى صومعتي ، وأنا أتمتم :

إذا ضاق صدر المرء عن قول حقّه ، تقطّعت الأوصال فيه من الندمِ

وتذكرت قول الحكيم العربي:

" من خاف الناس خسر دنياه ، ومن خاف الله ربح آخرته.

X

صار داخلي ميدان صراع : عقل يسأل، وقلب يتألم ، وروح تبحث عن نور. كنت أشعر أنني أقف على حافة هاوية ، إن تقدمت سقطت في غضب الأسقف وسلطانه ، وإن تراجعت سقطت في مستنقع الصمت والخيانة.

وفي إحدى الصلوات ، انهمرت دموعي دون وعي، وقلت في سري :

" يا رب، إن كنت تعلم صدق نيتي ، فاهدني سواء السبيل ، ولا تجعلني عبدًا لغير الحق.

X

تبدلت نظرتي إلى الكنيسة ، فما عدت أراها جدرانًا مقدسة فحسب، بل صارت رمزًا لصراع الإنسان مع ذاته : بين النقاء والفساد ، بين النور والظل ، بين السؤال والطاعة. وكنت أرى في الأسقف صورة مركبة : رجلًا جمع بين الزهد والسلطة ، وبين الورع والطموح ، حتى التبست عليه الطرق.

كنت أسمع في داخلي صوتًا يردد :

ليس كل من لبس ثوب القداسة قديسًا ، ولا كل من رفع راية الدين صادقًا.

X

وذات فجر ، حين تسلل الضوء من نوافذ الكنيسة العالية ، شعرت أنني لم أعد قادرًا على الصمت. أدركت أن الكلمة ، مهما كانت مرة ، أرحم من السكوت ، وأن السؤال ، مهما كان مؤلمًا ، أصدق من الطاعة العمياء . فقلت لنفسي :

" يا سلمان ، إنك إن سكتّ اليوم ، ستصير غدًا شريكًا في الظلم ، وإن تكلمت ، فربما تخسر مكانك ، ولكنك ستربح نفسك.

وهنا تذكرت بيتًا من الشعر:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه

يُهدَّم، ومن لا يظلم الناس يُظلَمِ

فقلت :ولكنني لن أظلم، ولن أرضى بالظلم.

X

وهكذا بدأت مرحلة جديدة في حياتي ، مرحلة الوعي المؤلم . لم تعد الكنيسة عندي ملاذًا للسكينة وحدها ، بل صارت ساحة اختبار للنفس. تعلمت أن الإيمان ليس خضوعًا أعمى ، بل بصيرة حية ، وأن الطاعة إن لم تُضبط بالعقل ، صارت قيدًا ، وإن لم تُنر بالرحمة ، تحولت إلى سيف.

وبقيت تلك الأيام في حوران علامة فارقة في مساري ، نقشت في روحي دروسًا لا تمحى : أن الحق أثقل من أن يُحمل على أكتاف الضعفاء ، وأن الفقراء هم مرآة صدق الأغنياء ، وأن السؤال الصادق هو أول أبواب الحكمة.

" فاسأل ولا تخشَ العواقب، إنما بالعلم تحيا النفس بعد فنائها

وهكذا، بين ظلال الكنيسة وهمسات الفقراء ، وبين أوامر الأسقف وصرخات الضمير ، تشكلت ملامحي الجديدة ، وبدأت رحلتي الطويلة في البحث عن معنى الطاعة الحقّة ، ومعنى الإيمان الذي لا ينفصل عن العدل.

# تحت درج الكنيسة

## ملحمة الأسرار والضمير والبحث عن الخلاص

لم يكن الليل في تلك البقاع من حوران يشبه ليالي المدن العامرة ، بل كان كائناً حياً يتنفس في الظلال ، ويهمس في الأزقة ، ويتكاثف فوق الأسطح كستار أسود من الأسرار. كانت الرياح تسري بين الحقول الجرداء ، حاملة معها رائحة التراب المبتل بندى الفجر ، وكأنها تعلن عن ولادة يوم جديد لا يقل غموضاً عن سابقه.

في تلك الليلة ، جلسنا أنا وبركاش في غرفتنا الضيقة داخل حرم الكنيسة ، حيث الجدران السميكة تحبس الأنفاس ، والشمعة الوحيدة تترجرج لهبها كقلب خائف . كان بركاش مضطرباً ، يذرع المكان جيئة وذهاباً ، بينما كنت أرقبه بصمت ، أقرأ في ملامحه توتراً لم أعهد مثله من قبل.

كان صديقي بركاش رجلاً لا تهدأ روحه ، دائم الشك ، يقظ الضمير ، لا يقبل السكون حيث ينبغي للقلق أن يكون . لم يكن يتتبع عورات الناس بدافع الفضول أو التشفي ، بل بدافع الخوف على الحق ، كأن داخله ميزاناً دقيقاً يزن به الأفعال ، فلا يستقيم له أمر إذا اختل.

قال لي بصوت خافت ، كأنه يخشى أن يسمعه الجدار نفسه :

يا سلمان ، لقد طال صمتي ، واشتد صدري بما أحمله ، وأخشى إن لم أبوح أن ينفجر قلبي.

رفعت بصري إليه ، وفي عيني تساؤل و ترقب :

ما بك يا صديقي ؟ أراك كمن عاد من سفر طويل محمّلاً بآثام الطريق.

تنهد ، ثم جلس على طرف السرير الخشبي ، وأسند رأسه إلى الجدار.

هذا الأسقف... هذا الرجل الذي نظنه قديساً ، ليس كما يبدو.

كان للأسقف هيبة تسبق خطاه ، ووقار يجبر الرؤوس على الانحناء . كانت كلماته في العظات تشق القلوب ، حديثه عن الرحمة يفيض رقّة ، وعن المحبة ينساب كنهر صافٍ . ومع ذلك ، كان شيء ما في نظراته يثير الريبة ؛ بريق خفي ، كالوميض الذي يسبق العاصفة.

قال بركاش :

كنت أراقبه منذ أشهر . رأيته يتردد على بيت امرأة في ضواحي حوران ، في أوقات لا يليق فيها براهب أن يخرج . وكان إذا ظن أننا قد غرقنا في نوم عميق ، تسلل من حجرته ، وانسلّ كظل عبر ممر جانبي ، حتى يبلغ باباً صغيراً تحت أرض الكنيسة ، يحسبه الرائي صخرة من صخور البناء.

حدقت فيه في دهشة :

وما وراء ذلك الباب ؟

قال وقد أطرق برأسه :

غرفة الأسرار.

ترددت الكلمة في فضاء الغرفة كجرس نحاسي .

غرفة الأسرار ؟ أتقصد أنه يخفي فيها كتباً محرمة أو طقوساً سرية ؟

ابتسم بركاش ابتسامة مرة :

وددت لو كان الأمر كذلك يا سلمان ، لكن ما وجدته أبشع.

اقترب مني وهمس :

سبعة صناديق مفعمة ذهباً وفضة وحليّاً.

ارتعش قلبي .

لعلك واهم يا صديقي ؟

رفع رأسه وقد لمعت عيناه بحرقة :

والله ما هذا الذهب إلا أموال المتبرعين للكنيسة ، أموال الفقراء واليتامى ، التي كان يفترض أن تُنفَق على بؤساء حوران. اغتصبها الأسقف لنفسه ، ودفنها في جوف الأرض ، كأنما يدفن ضميره معها.

ساد صمت ثقيل ، شعرت خلاله بأن سقف الغرفة يهبط على صدري . قلت أخيراً :

أي رجل دين هذا ؟ يسرق أموال المساكين ، ثم يحدثنا عن الرحمة والمحبة ؟

ضحك بركاش ضحكة قصيرة كالسكاكين :

سألته مرة عن بعض تصرفاته ، فقال لي : من أنت حتى تدرك أعماق الرحمة المسيحية ؟ كأن الرحمة صكّ يمنحه لنفسه ليبرر ما شاء من الأفعال.

في تلك اللحظة ، غاصت روحي في دوامة من الأسئلة. هل الإيمان قناع يرتديه بعض الناس ليخفوا تحته قبح نفوسهم ؟ وهل القداسة مظهر أم جوهر ؟ كنت أشعر أنني أقف على حافة هاوية أخلاقية ، بين ما تعلمناه من مبادئ سامية ، وما نراه من سلوك يبعث على الاشمئزاز.

قلت بمرارة :

ما أحسب هذا الرجل إلا رجل سوء. دعنا نفارقه.

تطلع إليّ بركاش بعينين يختلط فيهما الأمل و الخوف:
–أتترك المكان قبل أن تنكشف الحقيقة للناس؟

هززت رأسي :

سنبقى حتى عيد الفصح ، وقد اقترب موعده . لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

## X

في الأيام التالية ، أصبحت الكنيسة سجناً لقلوبنا . كل حجر فيها صار شاهداً صامتاً على خيانة ، وكل ترنيمة تحمل في طياتها نبرة كذب . كنت أرى الأسقف يعظ الناس عن الزهد والتضحية ، بينما تتجسد أمامي صورة الصناديق المدفونة تحت الأرض ، كقبر جماعي للأمانة.

كانت نفسي تموج بصراع داخلي. في الليل ، حين يهدأ كل شيء ، كنت أستلقي على فراشي ، وأحدق في سقف الغرفة ، أستحضر وجوه الفقراء الذين يقفون عند باب الكنيسة ، أيديهم المرتعشة ممدودة ، وعيونهم المليئة برجاء يائس . كيف يمكن لرجل أن يسرق هذا الرجاء ؟

كنت أسمع في داخلي صوتاً يقول :

إذا ما خانَ ذو الدينِ الأمانةَ ، فبئسَ الدينُ وبئسَ ما تديّنا .

و صوتاً آخر يهمس :

وما المالُ إلا عاريةٌ زائلة ، وما الباقياتُ سوى العملِ الصالح .

أما بركاش ، فكان أكثر اضطراباً مني. كان يحمل سرّاً لو أفشاه لقلب موازين القرية كلها ، لكنه كان يخشى العواقب . كان يقول لي :

يا سلمان ، أخاف أن ننطق فيضيع الحق بين ضجيج التبريرات. أخاف أن يُكذَّب الصادق ، ويُصدَّق الكاذب.

كنت أجيبه :

الحق كالشمس ، قد تحجبه الغيوم ، لكنه لا يموت.

ومع ذلك ، لم أكن واثقاً تماماً من كلماتي . كنت أعلم أن الحقيقة في عالم البشر لا تسير دائماً في درب مستقيم.

X

جاءت ليلة عيد الفصح . ازدانت الكنيسة بالشموع ، وتعانقت الأناشيد في فضائها الرحب . الناس في بهجة ، والقلوب معلقة برجاء الخلاص. كان الأسقف واقفاً عند المذبح ، مهيب الطلعة ، مشرق الوجه ، كأنه ملاك هبط من السماء . لكني كنت أراه بعين أخرى ؛ عين تعرف ما تحت الأرض.

خلال العظة ، تحدث عن القيامة ، عن النور الذي يهزم الظلام ، عن الحق الذي لا يموت. وكل كلمة كان ينطق بها ، كانت تصفع ضميري صفعة موجعة . تمنيت لو أقف وأصرخ في وجوه الجميع : تحت أقدامكم كنز مسروق ، وتحت أرديتكم قداسة زائفة !

لكن لساني انعقد ، وقلبي ارتجف.

بعد انتهاء الصلاة ، انسحبنا بهدوء . في الخارج ، كان الفجر يتسلل بخيوطه الأولى ، يرسم على الأفق لوحة من الذهب والورد. وقفت أتأمل السماء ، وشعرت أنني أترك خلفي جزءاً من نفسي.

قال بركاش :

إلى أين نمضي الآن ؟

قلت :

إلى حيث يقودنا الله. سنحمل معنا هذه التجربة ، لعلها تكون لنا درساً في التمييز بين المظهر والجوهر.

سرنا في الطريق الترابي ، وخطواتنا تختلط بصوت الريح. كان في صدري ثقل ، لكنه كان ممزوجاً بشيء من الأمل. أدركت أن الإيمان ليس في الأشخاص ، بل في القيم التي يحملها الإنسان في قلبه.

وفي عمق روحي ، كانت تتردد أبيات كأنها خلاصة الرحلة:

إذا لم يكن في القلبِ نورُ بصيرةٍ ، تردّى وإن زانتْ عليهِ المظاهرُ ، فلا يغُرَّنكَ ثوبُ الزهادِ إنما يُقاسُ الورى بما في الصدورِ من سرائرِ

وهكذا، تركنا خلفنا كنيسة تخفي في باطنها ذهباً مسروقاً ، ومضينا نبحث عن كنيسة أوسع : كنيسة الضمير ، حيث لا درج سري ، و لا غرفة أسرار ، بل قلب مفتوح على الحق ، ونفس تتوق إلى العدالة ، وروح تحلم بعالم أصدق.

ومع كل خطوة، كنت أشعر أنني أتحرر من قيد ، وأنني أقترب أكثر من ذاتي . لم يعد السؤال : من هو الأسقف ؟ بل : من أنا ؟ أي طريق أختار ؟ وأي إنسان أريد أن أكون ؟

في تلك اللحظة ، أدركت أن أعظم الأسرار ليست تلك المدفونة تحت الأرض ، بل تلك التي نحملها في أعماقنا ، وأن أعظم المعارك ليست بين الناس ، بل داخل النفس ، حيث يتصارع النور والظلام ، والصدق والخداع ، حتى يخرج الإنسان من ذلك الصراع أكثر نقاءً ، أو أكثر سقوطاً.

وهكذا بدأت رحلتنا الجديدة. رحلة في دروب الفكر والروح ، نبحث فيها عن معنى الإيمان الحقيقي ، وعن عدالة لا تُشترى ، و عن رحمة لا تُستغل. رحلة ربما تطول ، وربما تكلّفنا الكثير ، لكنها وحدها القادرة على أن تجعل للحياة معنى ، وللألم حكمة ، وللإنسان كرامة.

و قبل عيد الفصح حدث ما لم نكن نتوقع .

# ظلال الذهب في قبو جوران

## اعترافات سلمان بين نار الضمير ووحشة الخيانة

في تلك الليلة التي انشقّ فيها قلبي كما ينشقُّ الرمانُ عن حُمرةٍ دامية ، جلستُ إلى صاحبي الشاب الصادق عبد الله بن أبي ، وكان وجهه يشبه صفحة ماءٍ لم تُدنّسه الريح بعد، فقلت له :

يا عبد الله، إنّ المرءَ قد يُخدع بالصوت الرخيم ، كما يُخدع الطفلُ ببريق السكين.

تنفّس الصمتُ بيننا طويلاً ، ثم بدأتُ أقصُّ عليه ما جرى في حوران ، تلك البلدة التي كانت تبدو لي كحمامةٍ بيضاء ، فإذا بقلبها يعشش فيه غراب.

X

كنتُ وصديقي القديم بركاش – وكان خادماً في كنيسة جوران منذ صباه – نظنُّ بأسقفها سفرنيوس الخير والصلاح . كان يعتلي المنبر في كل أحد ، فيفيض كلامه عذوبةً عن الرحمة ، ويذكّر الناس بثواب الصدقة ، ويستشهد بالمواعظ حتى تدمع عيون النسوة ، وتضطرب قلوب الشيوخ.

لكنّ شيئاً في داخلي كان يرتجف كلما رأيت يتيماً يطرق باب الكنيسة ، ثم يعود خائباً. كنتُ أقول في نفسي :

أيعقل أن يكون باب الله موصداً في وجه الفقراء ؟ أم أنّ الرحمة كلماتٌ تُقال ، لا أفعالٌ تُفعل ؟

وذات مساءٍ رماديّ ، أمسك بركاش بيدي وقال بصوتٍ متهدّج :

يا سلمان، تعال أُرِكَ ما يوجع الروح.

قادني إلى المقابر خلف الكنيسة ، حيث القبور مصطفّة كأنها سطورُ تاريخٍ صامت . هناك، في قبوٍ خفيّ ، فتح صناديق خشبية ثقيلة ، فإذا بالذهب يلمع كما تلمع أعينُ الذئاب في الظلام.

قال لي :

هذه الحليّ يا سلمان أعرفها حقّ المعرفة... أعرف أصحابها... أعرف دموعهم حين وهبوها.

مددتُ يدي أتحسّس سواراً ماسياً ، فاهتزّت في داخلي ذكرى قديمة.

قلت :

أذكره يا بركاش... هذا سوار زوجة عمدة حوران . تبرّعت به يوم شُفي ابنها من مرضٍ عضال . يومها سمعتُ الأسقف سفرنيوس يعدها أن يُباع السوار ويُطعم بثمنه الفقراء .

ضحك بركاش ضحكةً مرة ، و قال :

لم تكن تدري أن أسقفنا المحترم هو الفقير والمحتاج واليتيم !

X

يا عبد الله ، ما أشدّ صدمة المرء حين يرى المثال يسقط ! كنتُ أشعر أنني أنا الذي انكشفت عورتي ، لا الأسقف.

قلتُ في نفسي :

أكنتُ ساذجاً إلى هذا الحد ؟ أكنتُ أعبد صورةً لا حقيقة ؟ أم أن في الإنسان ميلاً لأن يصدّق ما يُريحه لا ما يُقلقه ؟

كنتُ أرى في الأسقف أباً روحياً ، وأجد في عظاته سكينة . فلما رأيت الذهب مكدّساً ، شعرتُ أن الكلمات التي كان ينطق بها لم تكن إلا قشرةً تخفي تحتها جشعاً دفيناً.

تذكّرت قول الشاعر:

إذا كان ربُّ البيتِ بالدفِّ ضارباً

فشيمةُ أهلِ البيتِ كلِّهمُ الرقصُ

فقلت:

إذا كان راعي الأرواح سارقاً ، فكيف نأمن على القطيع ؟

X

قلتُ لبركاش و أنا أرتجف :

لنعد إلى الكنيسة ، فإن علم سفرنيوس أننا اطّلعنا على سرّه ، اتهمنا بما يُسجن أو يُقتل به. ومن يدري ؟ لعلّ أمرنا يبلغ أبي ، فينفّذ فينا حكم كسرى الأول حرقاً !

أجابني بركاش وهو يعيد إغلاق الصناديق بحذر :

هذا الأسقف لا يتورّع عن دنيّة. لكن يا سلمان ، أترضى أن تبقى شاهداً صامتاً ؟

سكتُّ.

كان السؤال كسيفٍ على عنقي.

قلت :

الصمت أمان... والكلمة نار.

قال :

بل الصمت موتٌ بطيء. أما سمعت قول الحكيم :

من رأى منكراً وسكت ، فقد أعانه.

نظرتُ إلى عينيه ، فرأيت فيهما صدقاً يوجع.

X

كان سفرنيوس خطيباً بارعاً.

كان يقول في عظاته :

المال مال الله ، ومن منع الفقير حقه ، منعه الله رحمته.

يا للعجب ! أليس هو الذي منع ؟ أليس هو الذي كنز ؟ .

هنا أدركتُ معنى قول الشاعر:

لا تنهَ عن خلقٍ وتأتي مثلَهُ عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

كنتُ أراه يمشي بين الناس بثيابٍ فاخرة ، ويخفض صوته تواضعاً ، بينما يرفع قلبه كبراً.

X

قلتُ لعبد الله وأنا أتنهد :

عزمنا أنا وبركاش على مغادرة جوران. لم نحتمل أن نبقى تحت سقفٍ يختبئ تحته هذا الظلم.

لكن القرار لم يكن سهلاً.

في الليل ، كنتُ أسمع في داخلي صوتين:

الأول يقول : اهرب بنفسك. النجاة أولى . والثاني يهمس : أين تفرّ من ضميرك ؟

كنتُ كمن يقف على حافة بئر :

إن صرخ سمعه الناس فوقع ، وإن سكت سقط وحده.

X

سألتُ نفسي :

أأفضحه فأهزّ ثقة الناس بالدين ؟ أم أستر عليه فأشارك في الظلم ؟

وهنا تذكّرت قولاً مأثوراً : الساكتُ عن الحقِّ شيطانٌ أخرس.

فقلت لعبد الله :

يا صاحبي، إنّ الدين بريء من رجالٍ يلبسون عباءته ليستروا أطماعهم . إنما يَفسد الدين حين نسكت عن المفسدين.

هزّ عبد الله رأسه و قال :

العدل لا يُقام إلا برجالٍ يخافون الله أكثر مما يخافون الناس.

X

حين هممنا بالرحيل ، نظرتُ إلى الكنيسة آخر مرة . بدت لي كقصرٍ جميلٍ أساسه من طين . تذكّرت وجوه الفقراء الذين كانوا يقفون عند بابها ، تذكّرت دموع المرأة التي تبرّعت بسوارها. قلت في نفسي :

وما المالُ إلا فتنةٌ في يدِ الفتى فإن لم يُسخّرْهُ ، تسخّرَ للهوى

كان الذهب في القبو صامتاً ، لكنه كان يصرخ في ضميري.

X

يا عبد الله، لقد تأملتُ طويلاً في عقلية سفرنيوس.

لم يكن فقيراً محتاجاً ، بل كان أسير وهمٍ داخلي :

وهم السيطرة ، وهم التفوق ، وهم أنه أذكى من الجميع . الطمع ليس حبّ المال فحسب ؛ هو شعورٌ بالنقص يُغطّى بالاقتناء.

كان يخطب عن الرحمة ليقنع نفسه أنه رحيم . كان يعد الفقراء ليهرب من صورهم في الليل.

ربما كان يخاف الفقر في طفولته ، فصار يختبئ خلف الذهب كما يختبئ الطفل خلف ثوب أمه.

وهنا فهمتُ أن الشرّ ليس دائماً وحشاً يزمجر ، بل قد يكون رجلاً يرتدي ثوب القداسة.

X

في الطريق خارج حوران ، قال لي بركاش :

أترى أننا فعلنا الصواب ؟

قلت :

الصواب طريقٌ لا يُعرف إلا بعد السير فيه.

قال:
لو عاد بنا الزمن ، أكنتَ تدخل القبو ؟

سكتُّ لحظة، ثم قلت :

نعم. لأن الجهل راحة مؤقتة ، أما المعرفة فمسؤولية.

قال:
إذن فلتكن لنا شجاعة المسؤولية.

X

التفتُّ إلى عبد الله بن أبي و قلت :

يا عبد الله، إن الناس قد يُخدعون بالمظاهر ، لكن الله لا يُخدع . احذر أن تُسلّم قلبك لرجلٍ قبل أن ترى أفعاله . فالكلمات قد تكون جسوراً إلى الخداع.

ثم أنشدتُ :

لا تحسبنَّ المجدَ تمراً أنتَ آكلُهُ

لن تبلغَ المجدَ حتى تلعقَ الصبرا

و النفسُ إن لم تُربَّها بالحقِّ ضائعةٌ

كالسيفِ إن لم يُصنْهُ العزمُ قد كسرا

وختاماً قلتُ له :

تعلمتُ من حوران أن الإيمان ليس في المواعظ ، بل في المواقف . وأن الذهب إذا نام في القبو ، استيقظ في الضمير . وأن الخيانة لا تكون بسرقة المال فحسب، بل بسرقة الثقة.

وسكتُّ.

لكن في داخلي بقي صوتٌ يردد :

إذا ضاعَ العدلُ بين الناسِ فانتظرِ ، زمناً يبيعُ فيهِ الصالحونَ ثيابَهم ، ويشتري فيهِ الفاسدونَ منابرَهم.

وهكذا خرجتُ من حوران لا أحمل ذهباً ، بل أحمل درساً أثقل من الذهب :

أنّ الحقَّ لا يموت ، لكنه ينتظر من ينصره.

# سلمان الحوراني

## شهادة على قبرٍ مفضوح

في تخوم حوران ، حيث تمتد السهول السوداء كأنها صفحاتٌ من سفرٍ قديم ، وحيث الريح تكتب على حجارة البازلت مراثي العابرين ، كانت النفوس معلّقةً بين سلطان الأرض وسلطان السماء. وعلى تخوم جنوب بلاد الشام ، تحت ظل الدولة التي تحكم من بيزنطية ، كانت الكنائس قائمةً بأجراسها ، وأحبارها قائمون على المنابر ، والناس بين رجاءٍ وخوف.

هناك، في كنيسةٍ عظيمةٍ تتوسط البلدة ، جلس الأسقف سفرنيوس ، بثيابه القرمزية ، وصوته المجلجل ، ويده الممدودة إلى الصدقات. وهناك أيضًا ، في زاويةٍ خفيّةٍ من ذلك المشهد ، كان فتىً يُدعى سلمان ، يغلي صدره بأسئلةٍ لا تنطفئ.

X

قال سلمان لصاحبه عبد الله، ذات مساءٍ ، وقد تلوّنت السماء بلون الرماد:

ننتظر حتى أعياد الفصح ، فإذا انقضت ، غادرنا حوران إلى مدينةٍ في جنوب الشام ، بعيدةٍ عن نفوذ سفرنيوس ، حيث نستطيع أن نقرأ الكتب بغير عينٍ تراقبنا ، ولا يدٍ تمتدّ إلى رقابنا.

كان القرار أشبه بوضع حجرٍ فوق قدرٍ يغلي . فالانتظار عند سلمان لم يكن زمنًا ساكنًا ، بل كان محكمةً داخليةً ، يحاكم فيها نفسه كل ليلة.

كان يقول في سره :

أأصبر على الظلم لأجل سلامة الجسد ؟ أم أصرخ بالحق ولو كان في الصراخ هلاكي ؟

وكان يتلو في نفسه قول الشاعر:

إذا المرءُ لم يدنس من اللؤم عرضه  فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلُ

غير أن عرضه كان يؤذيه السكوت.

لقد كان يرى اليتامى يقفون على باب الكنيسة ، وأيديهم كأغصان الزيتون اليابسة ، ويرى الأسقف يحدّث الناس عن فضائل العطاء ، ثم يدخل حجرته ، ويغلق الباب على صناديق لا يعلمها إلا الله... وهو.

X

شاء الله أن يُصبح الصباح مختلفًا.

طرق الأجراس لم يكن لصلاةٍ ، بل لخبرٍ هزّ البلدة :

مات الأسقف سفرنيوس في فراشه !

تجمّع الناس كما تتجمع الطيور حول شجرةٍ سقطت فجأة . الوجوه واجمة ، و الهمسات متقاطعة.

دخلوا حجرته ليعدوه للدفن.

كانت الغرفة ساكنةً إلا من رائحة البخور ، وجسدٍ مسجّى ، ووجهٍ جامدٍ لا يُقرأ.

هناك، شعر سلمان أن لحظة الانتظار قد انتهت . و أن الصمت ، بعد الموت ، خيانةٌ أعظم من الكلام في الحياة.

X

تقدّم سلمان ، وصوته بين الخشوع والغضب :

أيها الناس ، قبل أن تُنزلوه إلى قبره ، اسمعوا مني ما علمناه عنه.

التفتت الوجوه نحوه ، بعضها متعجب ، وبعضها مستنكر.

قال رجلٌ من القوم :

اتق الله يا سلمان ، أتذكر مساوئ الموتى ؟

أجاب سلمان ، وصدره يرتجف :

بل أذكر أموال اليتامى ، وأحلى نسائكم ، ووثائق الضياع التي اشتراها بصدقاتكم.

صاحت امرأة :

كذبت ! لا نصدق أن الأسقف سفرنيوس سرق أموال الكنيسة ! أيسرق أسقفٌ أموال الله ؟ !

و قال آخر ، وقد بدا عليه التردد :

و الله إني لأشعر أن هذا الفتى صادق فيما يقول.

انقسم الناس فريقين ، كما ينقسم القلب بين هواه وعقله.

فريقٌ يصرخ : إنك تكذب يا سلمان !

وفريقٌ يهمس :كنا نعلم أنه رجل سوء ، يأمرنا بالصدقة ، ولا يدفع لليتامى شيئًا.

X

تقدّم رجل من بركاش، وكان الناس يعرفونه بالاسم الذي أطلقه عليه الأسقف أول التحاقه بالكنيسة.

صاح:
أين زوجة العمدة ؟

خرجت سيدةٌ وقورة ، وقد لفّت رأسها بوشاحٍ أسود. قالت :

ها أنذا ، ماذا تريد مني يا باخوم ؟

قال بركاش :

ألم تهبي للكنيسة سوارك الماسي ، لينفق الأسقف من ثمنه على اليتامى والمساكين ؟

أطرقت برأسها ، و قالت بصوتٍ متهدج :

أجل، كان ذلك يوم شفى الله ولدي من مرضه.

رفع سلمان رأسه، وقال:

سترين سوارك الماسي مع حلى نسائكم وأموالكم ، إن نزلتم إلى القبو ، ورأيتم ما في صناديقه السبعة.

تعالت الأصوات :

إن كنت كذبتنا أنت وصاحبك قتلناك ! وإن كنت تطمع في منصب الأسقف الميت ، فلن نمكّنك منه !

وقف سلمان ، وقد تجرّد من خوفه :

والله ما لي أربٌ في منصب صاحبكم . ولن أبقى في حوران بعد أن تتيقنوا مما أقول . انزلوا إلى القبو ، تجدوا صناديق الذهب والفضة والحلى ، ووثائق الضياع والدور التي اشتراها بأموال الصدقات، كل ذلك من أموالكم .

X

كان القبو باردًا ، كأن الأرض تخبئ فيه سرًّا منذ سنين.

أنزلوا المشاعل ، وفتح سلمان الصندوق الأول، ثم الثاني... حتى السابع. توهّج الذهب تحت النار . تدحرجت حليّ النساء كأنها دموعٌ متحجرة.

صرخت زوجة العمدة :

هذا سِواري!

وتقدّم آخرون ، يتعرّفون على خواتم ، وأقراط ، وقلائد.

قرأ أحدهم وثيقةً بصوتٍ مرتعش :

ضيعة في وادي اليرموك... باسم سفرنيوس.

وقال آخر :

دارٌ في أطراف البلدة... باسمه.

تحوّل الحزن إلى غضب . والغضب إلى لعنة.

صاحوا:

لا ندفن اللص أبدًا ! لنفضحه حيًّا وميتًا ! أصلبوه ميتًا وارجموه بالحجارة !

كان المشهد أقرب إلى محكمةٍ سماوية ، يقف فيها الناس قضاةً وجلادين في آنٍ واحد.

ثم التفتوا إلى سلمان :

سنجعلك مكانه يا سلمان ! ونرسل إلى بيزنطية بهذا !

سكت لحظة . كان في داخله صوتان :

صوتٌ يقول : هذه فرصتك ، أصلح ما أفسده ، تولَّ المنصب ، كن أنت العادل.

وصوتٌ آخر يهمس : السلطة نار ، ولو لبستَ ثوب الزهد.

تذكّر قول الحكيم :

من طلب الرياسة هلك ، ومن هرب منها نجا.

ورفع رأسه قائلاً:

لا والله، ما لي في هذا من حاجة . أنا وصاحبي مغادران هذه البلدة . نعتزل الناس ، ونقرأ الإنجيل والتوراة ، ونبحث فيهما عن الحقيقة.

X

في تلك اللحظة ، لم يكن سلمان زاهدًا في المنصب فحسب ، بل كان خائفًا من نفسه.

كان يعلم أن الإنسان إذا ذاق طعم السلطة ، تغيّر . وأنه قد يصبح يومًا ما... صورةً أخرى من سفرنيوس.

كان يقول في نفسه :

أنا الذي كشفتُ الفساد ، فهل أضمن ألا يفسدني المقام ؟ هل أنا أصدق من نفسي ، أم أنني لا أعرفها بعد ؟

لقد كان صراعه نفسيًا ، أخلاقيًا ، اجتماعيًا . بين رغبة الإصلاح ، وخشية الوقوع في ذات الفخ.

وكان يتمتم:

لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتي مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

X

في اليوم التالي ، كانت حوران صامتةً على غير عادتها . الكنيسة مغلقة . الناس واجمون . والقبو مفتوحٌ كجرحٍ في ذاكرة البلدة.

وقف سلمان على مشارف البلدة ، ينظر إلى السهول الممتدة.

قال بركاش :

أترى أنهم سيغفرون لك ما فعلت ؟

ابتسم سلمان بحزن :

لا أطلب غفرانهم . أطلب أن يغفر لي ربي إن قصّرت .

سار الاثنان نحو الجنوب ، نحو مدينةٍ بعيدةٍ عن نفوذ الأسقف الراحل، وعن ظل بيزنطية، وعن صخب الناس.

كانا يحملان معهما كتابين ، وقلبين يبحثان عن اليقين.

X

لم تكن قصة سلمان قصة فضيحةٍ فحسب ، بل كانت قصة إنسانٍ واجه السلطة بالحقيقة ، ثم واجه نفسه بالهروب من السلطة.

لقد سقط الأسقف في فراشه ، لكن الأخطر أن يسقط الإنسان في قلبه.

وفي حوران ، بقيت الحكاية تتناقلها الألسن :

أن فتىً كشف سبعة صناديق ، لكنه أغلق بابًا في نفسه ، لئلا يفتح صندوقًا آخر... اسمه الطمع.

وهكذا، بين القبو و الكتاب ، بين الذهب والضمير ، بين بيزنطية والبادية ، اختار سلمان أن يكون باحثًا عن الحقيقة، لا حارسًا لخزائنها.

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يُهدم، ومن لا يظلم الناس يُظلِم

لكنه اختار سلاحًا آخر :

الكلمة.

وسار ، تاركًا خلفه قبرًا مفضوحًا ، وأمةً بدأت تتعلم أن القداسة لا تعصم من السؤال.

# على تخوم النور

## رحلةُ الروح بين صليبٍ مكسور وبشارةِ نبيٍّ منتظر

في مجلسٍ تضوع بعبق الذكر ، حيث كان الصحابة يلتفون حول محمد ρ كما تلتفُّ الكواكب حول شمسها ، جلس سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وقد خالط الشيبُ لحيته ، واختلط في عينيه بريقُ الذكرى بدمعةٍ لا تسقط.

وكان إلى جواره شابٌّ مسلم، قلَّ أن يفارق مجلس رسول الله إلا لحاجةٍ ملحّةٍ له أو لأهل بيته ، ينهل من حديثه كما ينهل العطشان من جدولٍ رقراق . كان قلبه غضًّا ، متوثبًا ، يتوق إلى معرفة البدايات ؛ بدايات الإيمان في القلوب التي عانت ، وكيف تهشَّمت الأصنام في النفوس قبل أن تتحطم في الكعبة.

اقترب الشاب من سلمان ، وقال بصوتٍ خافتٍ كأنما يخشى أن يوقظ في صدر الشيخ جراحًا قديمة :

يا أبا عبد الله، حدثنا عن رحلتك قبل أن يهديك الله إلى هذا النور... كيف كان الطريق ؟

تنهد سلمان ، تنهدًا خرج من أعماقٍ بعيدة ، و قال :

طريقٌ طويل يا بني... طويلٌ كعمرِ التيه ، قصيرٌ كلمح البصر حين يهتدي القلب.

ثم سكت لحظة ، وكأن ذاكرته تعود به إلى أرضٍ أخرى ، إلى صليبٍ منصوبٍ على تلٍّ موحش.

قال الشاب فجأةً، وقد سبقته الحماسة :

وصلبوا الأسقف اللص ؟

أطرق سلمان رأسه ، وأجاب بصوتٍ متهدج :

نعم... وصلبوه ، ثم رجموا جثته بالحجارة ، وما كفّاهم أن علقوه على الخشبة حتى جعلوا من جسده عبرةً للناس . وخرجنا من هناك لا نحمل إلا خوفًا وحيرة.

ثم أردف، وعيناه تحدّقان في البعيد:

غادرنا حوران ، وانحدرنا إلى الجنوب ، نبحث عن الحق كما يبحث الغريق عن خشبة النجاة . كانت الأرض ممتدةً كأنها امتحان ، والسماء فوقنا شاهدةً على قلقنا.

X

كان سلمان يومئذٍ في صراعٍ لا يهدأ. كان يرى في رجال الدين تناقضًا يُشبه الصدع في المرآة ؛ ظاهرٌ من التقوى ، وباطنٌ من الطمع. وكان قلبه يصرخ :

أهكذا يكون طريق الله ؟ أبهذا تُشترى الجنة ؟

وفي تلك الرحلة ، هداه الله إلى قسٍّ صالح ، لم يرَ منه أزهدَ في الدنيا ، ولا أرغبَ في الآخرة . رجلٌ كأنما صُبَّت روحه من صفاء. إذا تكلم ، خشع الصوت ؛ وإذا سكت ، تكلمت ملامحه.

قال سلمان :

أحببناه حبًا لم نُحبه لأحدٍ قبله . أقمنا معه زمنًا ، نأكل من علمه كما نأكل من خبزه ، ونشرب من حكمته كما نشرب من مائه.

وكان القسُّ إذا نظر إلى الدنيا ، قال :

الدنيا ظلٌّ زائل ، من استظلَّ به طال وقوفه ، ومن مرَّ به عابرًا بلغ مقصده.

و كان يردد :

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ كلاكلهُ أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

وكان سلمان يسمعه ، فيشعر أن الكلمات لا تخرج من فمٍ ، بل من قلبٍ مجرَّب.

X

حتى إذا حضرته الوفاة، كان المساء ساكنًا ، والريح تمسح أطراف الأشجار كأنها تودّعها. دخلنا عليه ، فوجدناه مسجّى ، وقد غارت عيناه ، واصفرّ وجهه ، لكن في قسماته نورًا لم يخفت.

قال بصوتٍ ضعيفٍ متهافت :

يا سلمان... يا بركاش... قد حضر ما تريان ، ولا مهرب من الفراق يا ولديّ.

يقول سلمان :

شعرت يومها أن الأرض تميد بي. فقد عهدناه ظاهره كباطنه ، رجل صدقٍ و إيمان . قلت له و أنا في أشد حالات الحزن:

يا سيدي، لقد أحببناك كما لم نحب أحدًا من قبل ، والآن تتركنا ، ولا نعلم إلى أين نذهب بعدك ، ولا على من نتلقى العلم.

رفع كفَّه المرتعشة ، وأشار أن أصمت. كانت أنفاسه تتقطع كخيطٍ يُشدُّ ثم يُرخى.

قال :

يا سلمان ، لا تقاطعني... فإن لحظاتي في الحياة معدودة.

ثم سكت لحظةً ، وكأنما يجمع ما بقي من عمره في كلمة.

يا ولدي ، لا أعلم أحدًا على ما نحن عليه... فقد هلك الناس وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه.

هنا ارتجف قلب سلمان . شعر أن الأرض ضاقت ، وأن الحق صار غريبًا ، وأن القلوب أغلقت أبوابها.

ثم قال القسُّ ، وصوته يخفت :

ولكن... قد أظلَّ زمانُ نبيّ.

لم يتمالك سلمان نفسه ، فقاطعه في لهفة :

نبي ؟ هو الذي طالما حدثتنا عنه ؟

فأجاب القسُّ بنبرةٍ تجمع بين الرجاء واليقين :

أجل... وبالله لا تقاطعني حتى أنتهي مما أودُّ أن أحدثكما به.

قال القسُّ:

إنا لنجد في كتبنا أن الله سيبعث في آخر الزمان نبيًا يُجدِّد شريعة إبراهيم عليه السلام ، ويمحو الشرك من الأرض.

كان سلمان يسمع ، وكأن الكلمات تنقش في صدره نقشًا.

قال :

هل آن أوان مبعثه يا سيدنا ؟

نعم... وقد كنت آمل أن أعيش حتى أراه وأنصره.

ثم سعل سعالًا طويلًا ، و أكمل :

ما أحسبه إلا قد بعث ، فقد سمعت إرهاصات مبعثه.

هنا خفق قلب سلمان خفقةً لم يعرفها من قبل . قال :

وأين نجد هذا النبي ؟ أين سيُبعث ؟

أغمض القسُّ عينيه ، كأنه يستحضر رؤيا بعيدة.

طالما رأيت في منامي نورًا يملأ فجاج الأرض ، يخرج من أرضٍ ذات حجارةٍ سود ، متشيطة ، كأنها خرجت من بركان. ثم... ثم أرى بين تلك الحجارة نخلًا.

قال سلمان بدهشة :

نخل ؟ أين تلك الأرض يا سيدنا ؟

قال بصوتٍ خافت :

لا أدري يا سلمان... ابحث عنه يا ولدي. اذهب بعد موتي أنت وبركاش ، فابحثا عنه... هناك تجد النبي.

X

في تلك اللحظات، كان سلمان في صراعٍ داخليٍّ عميق.

أأترك ما ألفت ؟ أأهيم في الأرض مرةً أخرى ؟ أأجعل حياتي كلها بحثًا ؟

ثم سمع في داخله صوتًا آخر :

وهل خُلقت إلا للبحث ؟ أترضى أن تعيش وتموت دون أن تبلغ الحق الذي تشتهي ؟

و كانت كلماته تتردد في صدره :

و من يتهيب صعودَ الجبالِ  يعش أبدَ الدهرِ بين الحُفر

قال للقسِّ:

يا سيدنا ، وكيف أعرفه ؟

فقال:

في كتابنا عنه علاماتٌ لا تخفى. قد دونتها في أوراقي. بعد أن تدفناني، خذا تلك الأوراق ، واذهبا بحثًا عن تلك الأرض. فإذا قابلتما نبيَّ آخر الزمان ، فأقرآه عني السلام، وقولا له : إنني... إنني وددت... أن...

ثم انقطع صوته ، وانفرجت شفتاه عن نفسٍ أخير ، وسكنت يداه.

X

صمت سلمان ، وساد المجلس سكونٌ عميق. كان الشاب المسلم ينظر إليه ، وعيناه دامعتان.

قال الشاب :

وماذا فعلت بعد ذلك ؟

ابتسم سلمان ابتسامةً فيها حزنٌ ورضًا.

دفناه كما أمرنا ، ثم أخذت أوراقه. قرأت العلامات مرارًا. كنت كلما قرأت وصفًا، شعرت أن قلبي يقترب من شيءٍ لا أعرفه ، لكنه يعرفني.

قال الشاب :

أكنت واثقًا أنك ستجده ؟

تنهد سلمان :

لم أكن واثقًا من الطريق... لكنني كنت واثقًا من الوعد.

ثم أطرق ، و قال :

كنت أخشى أن أموت قبل أن أراه . كنت أخشى أن يسبقني أجلي إلى قبري ، ويبقى هو يمشي على الأرض دون أن أبايعه.

وكان يحدث نفسه في الليالي الطويلة :

يا سلمان ، إن متَّ دون أن تلقاه ، فبأي وجهٍ تلقى الله ؟ أترضى أن تضيع حياتك بين صليبٍ مكسور وراهبٍ محتضر ؟

وكان يجيب نفسه :

بل أموت و أنا أبحث ، خيرٌ من أن أعيش وأنا غافل.

X

قال الشاب:

يا أبا عبد الله ، ما الذي جعلك تثبت كل تلك السنين ؟

قال سلمان ، وقد ارتفع صوته قليلًا:

العطش يا بني. العطش إلى الحق. إن من ذاق طعم السؤال لا يهدأ له بال حتى يذوق طعم الجواب.

ثم أضاف :

إن أخطر ما يصيب القلب أن يرضى . الرضا قبل الوصول موتٌ مبكر.

وسكت لحظة ، ثم قال :

تعلمت من رحلتي أن الحق لا يُورث ، بل يُطلب. وأن الإيمان ليس كلمةً تُقال ، بل طريقًا يُسلك.

ثم أنشد :

إذا لم يكن في السعيِ منك عزيمةٌ  فلا تبتغِ المجدَ المؤثلَ في غدِ

فكم من فتىً عاش الحياةَ بلا هدىً

وماتَ كما قد عاش: غيرَ مُجدِّدِ

X

نظر الشاب إلى رسول الله ρ في صدر المجلس ، ثم عاد ببصره إلى سلمان.

أهذا هو النبي الذي حدثك عنه القس ؟

ارتجف صوت سلمان و هو يقول :

نعم... هو.

ثم خفض صوته :

لما رأيته أول مرة ، نظرت إلى وجهه ، فقلت في نفسي : ليس هذا بوجه كذاب . وذكرت العلامات ، فوجدتها فيه كما في الكتاب.

سكت لحظة ، ثم قال :

ـــيومها علمت أن رحلتي لم تكن ضياعًا، وأن كل ألمٍ عشته كان جسرًا إلى هذه اللحظة.

X

قال الشاب:

يا أبا عبد الله، ما أعجب قصتك !

فابتسم سلمان ، و قال :

ليست العبرة في قصتي ، بل في سنّة الله . من صدق في الطلب ، صدقه الله في العطاء.

ثم نظر إلى السماء ، و قال :

لو أن القسَّ الصالح عاش حتى يرى هذا اليوم ، لعلم أن موته لم يكن نهاية ، بل كان بدايةً لرحلةٍ حملت سلامه إلى النبي.

و سكت ، و كأنما يسمع صوتًا بعيدًا يقول :

إنما هي أيامٌ قلائل ، فمن زرع نورًا، حصد نورًا.

وفي المجلس، كان رسول الله ρ يتحدث ، وصوته ينساب في القلوب انسياب الماء في الأرض العطشى. وشعر الشاب المسلم أن قصة سلمان ليست قصة رجلٍ واحد ، بل قصة كل قلبٍ يبحث.

أما سلمان ، فكان في داخله سلامٌ عميق . سلامُ من طاف الأرض بحثًا عن الحقيقة ، ثم وجدها.

وكان يحدث نفسه :

يا سلمان، ما خاب من صدق . وما ضاع من سعى . إنما الطريق طويل ، لكن النهاية نور.

ثم أغمض عينيه لحظة ، كأنما يرى صليبًا مكسورًا ، وراهبًا محتضرًا ، وأرضًا سوداء ذات نخلٍ باسق... ثم يرى فوق ذلك كله نورًا يغمر الدنيا.

نورًا بدأ ببشارة ، وانتهى برسالة. نورا عم الكون بهاء ، وانتهى برحمة الله و هداه .

# يثرب... حين تتكلّم الحجارة السود

وما الدهرُ إلا من رواةِ قصائدي

إذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ منشدا

أبو الطيب المتنبي

X

كان المساء ينحدر على مضارب القوم انحدار الحزن إذا استقرّ في القلب فلم يبرحه . والريح ، تلك الريح الشامية التي تعرف وجوه الغرباء ، كانت تمرّ على الخيام فتهمس بأخبارٍ لا يفقهها إلا من أضناه الشوق.

في تهلّلٍ خافت، بين ابتسامةٍ لا يُدرى أهي سخرية أم إشفاق ، قال عبد الله بن أبي سلول مخاطباً صاحبه :

ما كذّبك هذا القسّ يا سلمان. فيثرب ، كما وصفها ، ذات حجارةٍ متشيّطة سود ، كأنها خرجت من فم بركانٍ غاضب ، وبينها نخلها المعروف في الآفاق ، يضرب به المثل في الطيب والوفرة.

رفع سلمان الفارسي رأسه ، وكان في عينيه أثر مسافاتٍ لا تُرى ، وقال بصوتٍ فيه يقين المتعبين :

أجل يا عبد الله ، صدق القسّ في هذا.

لكنّ الكلمات ، وإن خرجت هادئة ، كانت تضجّ في داخله بعاصفة . لقد كان وصف القسّ أشبه بخريطةٍ محفورةٍ في روحه ، لا في الورق . حجارةٌ سود ، نخلٌ باسق ، ونبيٌّ يُبعث بدين إبراهيم... كانت العلامات كنجومٍ لا تخطئها عين من اعتاد السهر.

اقترب عبد الله ، وقد بدا عليه فضولٌ لا يخلو من ريبة :

وما تلك العلامات التي ذكرها في أوراقه لتعرفا النبيّ إذا لقيتماه ؟

تنهّد سلمان . كان السؤال سهماً في موضعٍ لم يبرأ بعد.

هذا ، يا عبد الله ، ما أحبّ أن أستيقن منه إلا بنفسي.

سكت لحظة ، ثم أردف كأنّه يخاطب نفسه :

ليس كلُّ علمٍ يُبَاح ، ولا كلُّ سرٍّ يُذاع. إنّ في اليقين طُهراً لا يحتمل الشكّ إذا تداولَه الناس.

ابتسم عبد الله ابتسامةً جانبية ، و قال :

أنت وما تحبّ يا سلمان . فماذا بعد أن مات القسّ ؟

هنا ارتعشت الذاكرة في صدر سلمان ، وانفتح بابُ الأمس على مصراعيه.

قال سلمان ، وقد غاص صوته في نبرةٍ كأنها آتيةٌ من بئرٍ بعيدة:

دفنتُه أنا وبركاش. حملناه إلى موضعٍ ظليل ، حيث تلتقي الشمس بالأرض في صلاةٍ صامتة ، وواريناه التراب . كان جسده خفيفاً ، لكنّ كلماته كانت أثقل من الجبال.

توقّف ، كأنّه يرى المشهد أمامه :

ثم انطلقنا نبحث عن الحجارة السود المتشيّطة التي يقوم بينها نخلٌ كثير . أكثرنا السؤال على رجال القوافل ، نستوقفهم كما يستوقف الغريقُ كلَّ خشبة . لكنهم سخروا منا ، و قالوا : أي أرضٍ هذه التي تبحثان عنها ؟ أجننتما ؟

هنا تدخّل عبد الله :

و السخرية سهمُ الضعفاء . من لم يدرك المقصد ، اتخذ الهزء ستاراً لجهله.

أومأ سلمان برأسه ، و قال :

نعم . حتى يئسنا من طول البحث و السفر . أقمنا في أرضٍ معشبوشبة ، يفيض عشبها كأنه سجّادةٌ خضراء . اشترينا بقراتٍ وغنيمات ، و قلنا : لعلّ الاستقرار يداوي حمى السؤال.

لكنه ابتسم ابتسامةً مكسورة :

غير أنّ السؤال كان يسكننا كما يسكن الروحُ الجسد . ما كففنا عن السؤال عن القرية ذات الحجارة المتشيّطة ونخلها الكثير . كنّا إذا رأينا غريباً قلنا : لعله يحمل إلينا خبرها . وإذا مرّت قافلة ، خفق قلبانا كما يخفق جناحُ طائرٍ في قفص.

ثم صمت قليلاً ، و قال :

حتى مرّ بنا ذات يومٍ أغبرُ نفرٍ من بني كلب.

كان رجال بني كلب كأنّهم قِطعٌ من الصخر ، وجوههم مسفوعةٌ بالشمس ، وعيونهم تقدح شرراً من حذرٍ لا ينام.

قال سلمان :

سألناهم ، فقالوا قولاً عجيباً : لا نعرف قريةً أرضها متشيّطة إلا يثرب . ما رأبكما من هذه القرية ؟

هنا تدخّل بركاش ، وكان أكثر جرأةً مني، فقال :

هل إذا أخبرناكم تحملوننا إليها ؟

ضحك زعيمهم ، وكانت ضحكته خشنةً كاحتكاك الحديد بالحجر:

إذا أعطيتمانا هذه البقرات والغنيمات حملناكُما إلى القرية التي تريدان.

نظر عبد الله إلى سلمان و قال :

باعوكم الطريق بثمن رزقكم ؟

ابتسم سلمان بمرارة:

الطريق يا عبد الله لا يُعطى مجاناً ، وطلب الحقّ ثمنه غالٍ.

ثم تابع:

قلت لهم: أيّ قومٍ يعيشون فيها ؟

قال زعيمهم : عربٌ مثلنا. لكنّا نعجب لما ترغبان فيه أيها الفتيان! تتركان الشام ، أرض السمن والعسل ، وتنحدران إلى أرض الدَّفاف و الحيات و العقارب ؟

هنا تردّد سلمان لحظة ، ثم قال :

قلتُ له أخفي عنه الحقيقة :

إننا نريد أن نسيح في البلاد ، ونعرف ما لا نعرف من أحوال الناس.

رفع عبد الله حاجبيه :

وهل صدّقك ؟

لا. كان من عتاة اللصوص، قاطعَ طريقٍ خَبِرَ وجوه الرجال. راوده الشكّ فيما قلت.

وتغيّر صوت سلمان وهو يقلّد نبرة الرجل :

لا والله ما هذا تريدان . إن صدقتُما القول حملناكُما معنا.

هنا شعر سلمان أنّه أمام مفترقٍ حاسم : إما أن يكذب فيضيع ، أو يصدق فيغامر.

قال لعبد الله :

قلتُ له الحقيقة هذه المرّة : يقولون إنّه قد أظلّنا زمانُ نبيٍّ مبعوثٍ بدين إبراهيم عليه السلام ، وأنا وصاحبي نريد أن نلحق به.

ساد صمتٌ ثقيل في المجلس ، حتى خُيّل لسلمان أن الرمال نفسها توقّفت عن الحركة.

قال زعيم بني كلب :

كأنك لا تعي القرشيّ الذي تذكره يهود ، ويستفتحون به على الأوس والخزرج أصحاب يثرب ؟

تسارعت نبضات سلمان . كان الاسم يتردّد في الأسواق ، همساً لا يجرؤ أن يصير صراخاً . قال في حذر :

لعلّه هو من تذكرون.

نظر إليه الزعيم طويلاً ، ثم قال :

فاركب معنا ، فنحن ذاهبون إليها... على أن تدع لنا بقرتك وغنيماتك.

سكت سلمان ، وتسلّل إلى داخله صوتان متنازعان.

قال الصوت الأول، صوت الحذر : أتترك رزقك لهؤلاء اللصوص ؟ ماذا إن كذبوا ؟ ماذا إن باعوك عبداً في سوقٍ من أسواق العرب ؟

و قال الصوت الثاني ، صوت الإيمان الوليد : ومن ابتغى الحقّ، فلا يبخل بثمنه. أتبخل ببقراتٍ وغنيماتٍ ، وأنت تطلب نبوّة ؟ إن الطريق إلى الله لا يُعبد بالترف.

تذكّر كلمات القسّ ، ووجهه النحيل وهو يقول:

ستدركه يا سلمان ، إن صدق الطلب.

هنا همس سلمان في داخله ببيتٍ طالما ردّده :

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومٍ فلا تقنعْ بما دونَ النجومِ
أبو الطيب المتنبي

رفع رأسه ، وقال للزعيم بثبات:

هي لكم من هذه الساعة.

X

كان عبد الله بن أبي سلول يستمع ، وعيناه تلمعان بشيءٍ لم يُفصح عنه. قال بعد صمت :

عجيبٌ أمرك يا سلمان. تترك الأرض الخصبة ، والمال المضمون ، وتمضي وراء وعدٍ في الغيب.

أجابه سلمان بهدوءٍ عميق :

ليس الغيب يا عبد الله ما غاب عن العين ، بل ما غاب عن القلب. وأنا أراه في قلبي كأنّي ألمسه.

اقترب عبد الله ، وقال بنبرةٍ فيها شيءٌ من التحدّي :

وإن كان الذي تذكره وهماً ؟ وإن كان القرشيّ الذي يذكره يهود رجلاً كسائر الرجال ؟

ابتسم سلمان ، و قال :

إن كان وهماً ، فقد عشتُ له ، وذلك يكفيني. وإن كان حقاً ، فقد نجوت.

ثم أضاف ، بصوتٍ خفيض :

ومن لم يعش للحقّ عاش لنفسه ، ومن عاش لنفسه مات صغيراً.

X

كانت يثرب في ذهن سلمان أكثر من قرية . كانت وعداً . كانت نهاية التيه وبداية المعنى.

يرى حجارتها السود كأنها صفحات كتابٍ قديم ، ويشمّ رائحة نخلها كأنها بشارة . يسمع في الريح همساً يقول : هنا... هنا ينزل الوحي.

قال لعبد الله :

أتعلم يا عبد الله ؟ ليست الحجارة السود هي التي تشدّني ، ولا النخل . إنما يشدّني أن تكون أرضاً يختارها الله لمبعث نبيّه.

فأجابه عبد الله ، وقد بدا عليه شيءٌ من التفكير العميق:

الأرض لا تختار يا سلمان ، الناس هم الذين يصنعون قدرها.

فردّ سلمان :

بل الله هو الذي يصنع قدر الأرض والناس.

وسكتا طويلاً.

X

في نفس عبد الله، كانت أمواجٌ لا تقلّ اضطراباً . كان يرى في حديث سلمان ناراً قد تشتعل في صدور الناس . وكان يعرف يثرب ، ويعرف الأوس والخزرج ، ويعرف ما فيهم من شقاقٍ وحلمٍ بدولةٍ توحّدهم.

قال في نفسه :

أترى هذا القرشيّ الذي يذكره اليهود يكون مفتاحاً لما نرجو ؟ أم يكون خصماً يزاحمنا على السيادة ؟

كان عبد الله يفكّر بعقل السياسيّ ، وسلمان يفكّر بقلب الباحث عن النور.

وهنا تتجلّى المفارقة الكبرى :

رجلٌ يسعى إلى سلطة الأرض ، وآخر يسعى إلى طمأنينة السماء.

X

قال سلمان، وهو ينظر إلى الأفق:

يا عبد الله، إن الطريق إلى يثرب ليس طريق رملٍ وحجارة ، بل طريق نفسٍ تُبتلى . لقد تركتُ أهلي وبلادي ، وخدمتُ رجال دينٍ واحداً بعد آخر ، أبحث عن أثرٍ يقودني إلى الحقّ.

ثم تمتم :

ومن طلب العلا سهر الليالي  وصافحَ المجدَ في عزٍّ وجلدِ

قال عبد الله:

وماذا لو وصلتَ ، فلم تجد ما تريد ؟

أجابه سلمان :

سأكون قد صدقتُ مع نفسي ، وذلك أول النصر.

X

ركب سلمان وبركاش مع بني كلب ، وخلفهما أرضٌ معشبوشبة ، وبقراتٌ وغنيماتٌ صارت ثمناً لحلم.

كانت السماء صافية ، لكن في الأفق غبارٌ خفيف ، كأنّه ستارٌ يُرفع عن مسرحٍ عظيم.

قال سلمان في سرّه:

يا ربّ ، إن كنتُ قد تركتُ شيئاً ابتغاء وجهك ، فلا تردّني خائباً.

أما عبد الله، فبقي واقفاً يرقب الغبار ، و قال في نفسه :

إن كان ما يقول حقاً ، فستتغيّر يثرب...  وستتغيّر معها مصائر الرجال.

وهكذا ، بين حجرٍ أسود ونخلةٍ باسقة ، بين طمعٍ وخشوع ، بين عقلٍ يحسب وقلبٍ يؤمن ، بدأت خيوطُ قصةٍ ستبدّل وجه التاريخ.

فما كانت يثرب حجارةً ونخلاً فحسب ، بل كانت موعداً مع قدرٍ يُكتب ، ونبوّةٍ تُشرق ، ورجالٍ تُختبر سرائرهم كما تُختبر المعادن في النار.

إذا أراد الله نشر فضيلةٍ طويتْ أتاح لها لسانَ حسودِ

وكانت الأيام حبلى ، والحجارة السود تشهد ، والنخل ينتظر.

# سلمان بين قيود الجسد وحرية الروح

## ملحمة العبودية واليقين في ظلال يثرب

وكم قيدٍ على الأجساد يبقى ، ولكنّ القلوبَ بلا قيودِ ، القلوب حرة تهوى بما تنجذب إليه .

ركبنا مع لصوص بني كلب ، وكان الليل قد أرخى سدوله على صحراء الشام ، كأنما السماء قد أطبقت على الأرض بجناحيها. كانت الرمال تبرد شيئًا فشيئًا ، والريح تمرّ علينا هامسةً كأنها تروي لنا حكايات القوافل الغابرة.

تمدّدنا نلتمس قسطًا من النوم ، بعد مسيرٍ أضنانا وأرهق عظامنا. كنتُ يومها أعدّ النجوم ، وأعدّ معها آمالي ، وأهمس في نفسي: لعلّ الطريق يقودني أخيرًا إلى النبي المنتظر الذي بشّرني به الراهب الصالح قبل موته.

غير أن الليل يخفي في سواده ما لا يخطر على بال.

ما إن غفوت ، حتى أفقت على جلبةٍ كأنها صليل سيوف في حلمٍ مفزع . فتحت عينيّ ، فإذا برجالٍ قد جثموا عليّ ، وثقلوا على صدري ، وقيدوا يديّ إلى عُنقي بقسوةٍ لا تعرف رحمة . حاولت أن أصرخ ، فكمّ أحدهم فمي بيده الخشنة.

صرخت في داخلي : أهكذا تكون نهاية الرحلة ؟ أهكذا تُسلب الحرية من راهبٍ ما عرف في حياته إلا الخلوة والبحث عن الحق ؟

وإذا بصديقي بركاش- رفيق غربتي، وقرين أيامي في الشام- ينهض كالسيف المسلول ، يضرب هذا ويدفع ذاك، يصيح فيهم:

اتقوا الله! ما ذنبه؟ أطلقوه !

لكن السيف كان أسرع من صرخته.

هوى أحدهم بضربةٍ على عاتقه ، ضربةٍ شقّت اللحم وأزهقت الروح ، فسقط بركاش على الرمال ، والدم يختلط بحبيباتها ، كأنه يكتب بدمه وصيةً أخيرة للصحراء.

تجمدت الدنيا في عينيّ.

بكيت ، لا بصوتٍ مسموع ، بل ببكاءٍ داخليّ يمزّق الروح. قلت في نفسي :

يا بركاش، يا أخا الطريق... ألهذا خرجنا؟ ألهذا فارقنا الشام ؟

توسلت إليهم أن يفكوا قيدي لأواريه التراب . لكنهم ضحكوا ضحكةً خشنةً ، و قال أحدهم :

دع عنك هذا التمثيل أيها العبد ! ستلحق به إن أكثرت الصياح.

ثم ألقوني على بعيرٍ كما يُلقى المتاع ، لا كرامة لجسدٍ ولا اعتبار لروح.

وهنا أدركت لأول مرة معنى قول الحكماء :

العبد عبد النفس في شهواتها ، والحرُّ يشبع مرةً ويجوعُ.

لكنني لم أكن عبد نفسي... كنت عبد قيدٍ فرض عليّ ظلمًا.

## X

وصلنا يثرب ، والمدينة يومها بين نخيلٍ يلوح كأشباحٍ خضراء ، وحصونٍ يهودية تعلوها الريبة والاحتراز . أدخلوني دار سيد بني قريظة : كعب بن أسد ، وكان سيدًا في قومه ، شديد الشكيمة ، حادّ النظرات ، كأن عينيه تفحصان الناس كما يفحص التاجر سلعته.

قال زعيم بني كلب وهو يدفعني أمامه :

هذا يا كعب هو العبد الذي جئناك به من الشام. قويّ البنيان ، مليح الشباب ، يصلح لكل عمل.

رفعت رأسي ، وقلت بصوتٍ خرج من أعماقي :

لا تصدقهم أيها السيد . أنا لست عبدًا . أنا حرّ ، راهبٌ من رهبان الشام ، ما عرفت العبودية قط.

قبل أن أتمّ كلامي ، ارتفع سوطٌ في الهواء ، وصاح رجلٌ من أتباع كعب :

صه أيها العبد ! كل العبيد يقولون مثل قولك . إن عصى فالسوط أدبه.

كانت الكلمة أشدّ وقعًا من السوط : العبد.

قلت في نفسي :

كيف يُمحى تاريخ إنسانٍ بكلمة ؟ كيف تُختصر رحلة بحثٍ عن الله في صفة عبدٍ مبيع ؟

باعوني كما يُباع الحيوان . ولم يكن البيع إلا لحظةً قصيرة ، لكنها حفرت في روحي أخدودًا لا يندمل.

قيّدوني إلى النخل ، وتركوا الشمس تصهر جلدي ، والجوع ينهش أمعائي . كلما قلت : أنا حر ، جاءني السوط جوابًا.

ومرّت الأيام ، ثم الأسابيع . تعلّمت أن الألم لا يقتل دائمًا ، بل أحيانًا يصقل الروح.

كنت في خلواتي بين النخيل أسترجع كلمات الراهب الصالح :

ستجد النبي في أرضٍ ذات نخل ، بين حرّتين ، يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة.

كنت أتمتم :

اللهم إن كان هذا هو الطريق إليك ، فصبّرني.

ثم شاع في يثرب خبر الهجرة . قيل إن النبي الذي خرج من مكة قد دخل المدينة ، وأن الناس خرجوا يستقبلونه بالأناشيد.

كان اسمه يتردد على الألسن : محمد.

من مكاني خلف الحصن ، كنت أسمع الأهازيج ، وأرى الأطفال يلوّحون بسعف النخيل ، والنساء يزغردن ، والرجال يتسابقون لنيل شرف اللقاء.

يا لحسرتي !

لو كنت حرًا ، لركضت معهم . لو كنت طليقًا ، لوقفت بين يديه. لو لم أكن مملوكًا ، لقلت له: جئتك من أقاصي الشام أطلب نورك. لكنني كنت عبدًا في قيودٍ لا تنكسر.

وما نيلُ المطالب بالتمنّي ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا.

X

في تلك الأيام تعرّفت إلى عبدٍ مثلي ، كان اسمه عبد الله. كان قلبه ليِّنًا ، وعيناه تشعّان صدقًا و صفاء. لم يكن يومها قد أسلم ، ثم هداه الله إلى الاسلام، وصار يحدثني عن النبي محمد ، ويجلس إليّ في خفية من احبار اليهود . .

قال لي يومًا:

لقد رمقتك يوم دخل رسول الله المدينة ، ورأيت وجهك يشرق بالبِشر.

قلت مبتسمًا رغم الألم :

ولم أكن قد عرفتُك بعد يا عبد الله ، ولا نشأت بيننا هذه الصداقة التي تخفف عني مرارة العبودية.

قال في تهللٍ ظاهر :

يا سلمان ، ما يمنعك أن تأتي معي الساعة إلى رسول الله فتنطق شهادة الحق ؟

هنا صمتّ .لم يكن الصمت ترددًا في الإيمان ، بل توقيرًا للحقيقة.

قلت في هدوء :

أودّ أن أستيقن.

حدّق في وجهي متعجبًا:

تستيقن من ماذا ؟ لقد سمعتني أتلو عليك بعض ما ينزل عليه من السماء !

قلت :

إنه لكلام كريم ، ليس بالإنجيل ولا بالتوراة ، لكنه من معينٍ واحد . غير أنني أريد أن أتحقق من العلامات التي ذكرها لي القسّ قبل موته.

سألني:

وما يمنعك أن تأتي معي فتجلس إليه ؟

خفضت رأسي ، وأجبت بصوتٍ فيه مرارة :

يمنعني رِقّي وعبوديتي.

سكت عبد الله لحظة ، ثم قال بحماسة :

لقد أسلم بلال ، وهو في ملك رجلٍ من قريش ، فتعال معي غدًا.

ذكّرني باسم بلال بن رباح ، وكأن الاسم مفتاحُ صبر.

قلت بصدقٍ عارٍ :

يا عبد الله، وهل جئت إلى يثرب إلا لهذا ؟ وهل فقد صديقي بركاش حياته إلا في هذا السبيل ؟ وهل فقدت حريتي إلا لأرى هذا النبي وأتبعه ؟ ولكنني أريد أن أستيقن... فلا تستعجلني.

ابتسم ، و قال :

والله ما أنا بتاركك حتى آخذك إليه.

قلت ، وفي قلبي رجاءٌ دفين :

وليس شيء أحبّ إلى قلبي من ذلك... ولكنني أودّ أن أستيقن.

X

في تلك الليلة ، عدت إلى مكاني بين النخيل. السماء صافية ، والنجوم تلمع كعيونٍ تراقبني.

قلت في نفسي :

يا سلمان ، أأنت عبد حقًا ؟ أعبدٌ من قيّدته يدٌ ظالمة ، أم عبدٌ من قيّدته شهوته وخوفه ؟

ثم سمعت صوتًا داخليًا يجيب :

إن الحرية حرية الروح . إن استطاعوا أن يقيدوا جسدك ، فلن يقيدوا قلبك.

بكيت ، لا حزنًا ، بل خشوعًا.

تذكرت قولًا سمعته من أحد الحكماء :

إذا المرءُ لم يُخلقْ بعزمٍ وحِكمةٍ ، تكسّر في أيدي الخطوبِ كما تُكسرُ القِدَرُ.

فقلت :

لن أتكسر . سأصبر حتى تتكشف العلامات.

X

لم يكن يقيني وليد لحظة انتظرها ، بل كان ثمرة رحلةٍ طويلة في البحث عن الايمان : من نار المجوسية إلى أناشيد النصرانية ، من قريةٍ إلى قرية أخرى ، من راهبٍ فاجر إلى راهب صادق ، حتى وصلت إلى أرض النخل ،أرض النبوة .

كنت أعلم أن الطريق إلى الحق لا يُختصر.

وفي أعماقي ، كان سؤالٌ يتردّد :

هل يكون هذا النبي هو خاتمة بحثي الطويل ؟ هل تنتهي غربتي عند بابه ؟

ولم يكن يمنعني من الانطلاق إليه إلا قيدٌ من حديد ، وسوطٌ يلوّح في الهواء . لكنني كنت أعلم يقينًا أن:

الصبر مفتاح الفرج ، ومن طلب العلا سهر الليالي.

X

هكذا كنت، بين نخيل يثرب ، عبدًا في ظاهر الأمر ، حرًا في باطنه.

جسدي في ملك كعب بن أسد اليهودي، وروحي معلقة بسماءٍ تنتظر الوحي . يدي في القيد ، وقلبي يطرق باب الحقيقة.

لم أكن أبحث عن خلاصٍ شخصي ، بل عن معنى لرحلتي ، عن تصديقٍ لنبوءة ، عن لقاءٍ يطفئ ظمأ السنين.

وفي أعماقي كان صوتٌ يهمس :

سيأتي يومٌ تقف فيه بين يدي النبي ، حرًا كما وُلدت ، وتعلم أن كل ألمٍ كان خطوةً في الطريق.

وهكذا ظللت أردد :

صبراً جميلاً ما أقرب الفرجا، من راقب الله في الأمور نجا.

وكان الفجر يقترب... وإن طال الليل.

# سلمانُ منّا:
# سِفْرُ اليقين بين نارِ الشكِّ ونورِ النبوّة

قال محمد بن عبد الله ρ: «سلمانُ منّا آلَ البيت" .

كان الليلُ ينسدل على يثرب كما تنسدلُ ستارةُ مسرحٍ على مشهدٍ لم يكتمل بعد .والريحُ تمسحُ وجوهَ النخيل كأنّها تُسرّحُ شعرَ طفلةٍ أرهقها الانتظار.

وفي غرفةٍ ضيّقةٍ ملحقةٍ ببستانٍ من بساتين بني قريظة ، جلس سلمانُ الفارسيُّ، يُحدِّق في أوراقٍ عتيقةٍ حملها معه من رحلة العمر الطويلة ، رحلةٍ ابتدأت في فارس ، ولم تنتهِ إلا على أعتاب قلبه.

كان عبداً لكعب بن أسد ، زعيم قريظة ، يعمل نهاره في السقي والتقليم والحفر ، ويبيت ليله في حوارٍ لا ينتهي مع نفسه .أيُّ عبدٍ هذا الذي يحمل في صدره مملكةً من الأسئلة ؟ وأيُّ أسيرٍ هذا الذي لا تستطيع القيود أن تُكبِّل يقينه ؟

X

المدينة التي وُلِدت من جديد

كانت يثرب قبل قدوم محمدٍ القرشيّ مدينةً تُشبه جسداً بلا روح . حصونٌ يهوديةٌ شاهقة ، وأسواقٌ تدور فيها الربا كما تدور الرّحى ، ومستنقعاتٌ تتخمّر فيها الحُمّى ، وأرضٌ بُورٌ تُترك قصداً ، كيلا يزرعها الأوس والخزرج ، فينافسوا سادة الحصون.

كان اليهودُ يُمسكون بخيوط الاقتصاد كما يُمسك العنكبوتُ بشبكته ؛ يُدبّرون ، ويُراوغون ، ويُغذّون نارَ العداوة بين الأوس والخزرج ، حتى إذا اشتعلت ، جلسوا يتدفّأون على لهيبها.

قال الشاعر:

ومن لم يذُدْ عن حوضِه بسلاحِه

يُهدَّمْ، ومن لا يظلمِ الناسَ يُظلَمِ.

لكنّ الظلمَ ، وإن طال ، لا يُخلِّد دولةً ، ولا يورِّث سلاماً.

ثم جاء محمد . جاء مهاجراً لا يملك إلا يقينه ، ولا يحمل إلا قلباً طاهراً وكلمةً تُشبه الماء . فإذا بالمدينة تتبدّل كما يتبدّل الليلُ فجراً.

الطرقاتُ التي كانت تراباً صارت ممهدةً ، والأرضُ التي كانت مستنقعاً صارت مزارع ، و القلوبُ التي كانت أحقاداً صارت إخوة.

آخى بين الأوس والخزرج ، فانطفأت نارُ بعاث التي أكلت سنينـهم .
وآخى بين المهاجرين والأنصار ، فصار المالُ مشاعاً ، والبيتُ مفتوحاً ، والخبزُ مقسوماً نصفين.

كان سلمانُ يراقب كلّ ذلك بعينين تتّسعان دهشةً يوماً بعد يوم.

X

في النهار ، وهو يغرس الفسيلة في الطين ، كان يُحدّث نفسه:

يا سلمان، لقد رأيتَ من الرهبان من بكى خشيةً ، ومن القسس من تضرّع صدقاً ، لكنّك لم ترَ أحداً بدّل مدينةً كما بدّلها هذا الرجل .

نعم، ولكن القسّ الطيّب حدّثني عن علاماتٍ ثلاث .

أ فتجعل العلامات حجّةً على الحقيقة ، أم تجعل الحقيقة حجّةً على العلامات؟

ثم يضحك ضحكةً قصيرةً يغلِّفها التعب.

كان القسُّ الطيّب قد كتب له في أوراقه :

إنّ النبيَّ المنتظرَ يقبل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوّة. علاماتٌ قليلةٌ في ظاهرها ، لكنّها عند سلمان كانت جسراً بين عالمين.

أحقاً أحتاج إلى دليلٍ بعد كلّ ما رأيت ؟ أم أنّ قلبي يخاف أن يُخدع مرّةً أخرى ؟

لقد تنقّل سلمان بين نار المجوسية ، ورهبانية النصارى ، وسهر الليالي في الأديرة ، وسار من فارس إلى الشام إلى الموصل إلى عمورية ، باحثاً عن نبيٍّ يُتمّم النور.

كم مرّةً ظنّ أنّه وصل، ثم اكتشف أنّه لم يصل !

لذلك كان يخشى أن يمنحه قلبه كلّه ، قبل أن يطمئنّ العقل.

X

وذات مساء، عاد من عمله ، فسمع أنّ محمداً يجلس في ظلّ نخلةٍ بين أصحابه . اقترب متردّداً ، وكان يحمل شيئاً من تمرٍ جمعه خفيةً.

قال في نفسه :

سأبدأ بالعلامة الأولى.

اقترب و قال :

بلغني أنّك رجلٌ صالح ، ومعك أصحابٌ غرباء محتاجون ، وهذا شيءٌ تصدّقتُ به عليكم.

نظر إليه محمدٌ بعينين صافيتين ، ثم قال لأصحابه :

كلوا.
وأمسك هو يده.

ارتجف قلب سلمان.

لا يأكل الصدقة...

عاد إلى غرفته تلك الليلة ، وقلبه يخفق كطبول الحرب.

في اليوم التالي ، جاء بتمرٍ آخر ، و قال :

أرى أصحابك محتاجين ، وهذه هدية.

فمدّ محمدٌ يده ، و أكل ، وأكل أصحابه معه.

همس سلمان :

يقبل الهدية...

بقيت العلامة الثالثة.

X

وفي جنازةٍ شهدها ، كان محمدٌ يمشي بين أصحابه. اقترب سلمان يتحيّن الفرصة ، كأنّه يبحث عن شيءٍ ضائع.

التفت محمد ، فابتسم.

قال له برفق :

يا سلمان، ما تريد ؟

ارتبك ،وسكت .

ثم كشف النبيُّ عن ظهره قليلاً ، فإذا خاتم النبوّة بين كتفيه ، كما وصفه القسُّ الطيّب.

في تلك اللحظة ، لم يبقَ في صدر سلمان شكٌّ واحد . انهمرت دموعه كما ينهمر المطر على أرضٍ عطشى. سقط على قدميه، يقبّلهما ، و يقول:

أشهد أنّك رسول الله.

X

لم يكن بكاؤه بكاءَ رجلٍ وجد دليلاً ، بل بكاءَ روحٍ وجدت وطنها.

قال في داخله :

يا سلمان ، انتهت رحلتك . لا ، بل بدأت.

تذكّر أباه المجوسيّ ،والنار التي كان يخدمها . تذكّر القيود ، والسوق ، و البيع ، و العبودية.

وقال:

ما قيمة الحرية إن بقي القلب عبداً للشك ؟ وما قيمة العبودية إن تحرّر القلب باليقين ؟

لقد صار عبداً في الظاهر ، لكنّه في تلك اللحظة كان من أحرار الناس.

X

صار يرى يثرب بعينٍ جديدة . لم تعد مجرد أرضٍ زراعية ، بل صارت فكرةً ، رسالةً ، تجربةً إنسانيةً فريدة.

كان محمدٌ يُقيم مجتمعاً لا يقوم على الدم ولا العِرق ، بل على العقيدة والعدل . لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ إلا بالتقوى.

وكان سلمان - الأعجميّ - يسمع ذلك، فيشعر أنّ التاريخ يُعاد كتابته.

X

وفي يومٍ، واجهه كعب بن أسد قائلاً :

بلغني أنّك تكثر من مجالسة محمد.

نظر إليه سلمان بثبات :

إنّي أبحث عن الحقّ.

ضحك كعب باستهزاء:

الحقُّ عندنا ، في التوراة، في الحصون ، في المال.

أجابه سلمان :

الحقّ ليس ما نملكه ، بل ما يملكنا.

ساد الصمت لحظةً.

ثم قال كعب بحدّة :

إياك أن تُفتن.

فابتسم سلمان ابتسامةً هادئة :

لقد فُتنتُ منذ سنين... بالبحث.

X

لم يطل الزمن حتى أُعتق سلمان ،وصار من خاصّة الصحابة.

وذات يوم ، قال النبيُّ كلمته الخالدة:

"سلمان منّا آل البيت. "

لم تكن جملةَ تكريمٍ فحسب ، بل إعلانَ ثورةٍ على مقاييس النسب والعرق.

أن يُصبح الفارسيُّ من آل بيت النبيّ العربيّ ! ذلك زلزالٌ يهدم أوهام العصبية.

و قف سلمان تلك الليلة ، ينظر إلى السماء ، و يقول :

يا ربّ، ما أكرمك ! خرجتُ أطلب نبيّاً ، فأعطيتني أباً.

X

كانت رحلة سلمان دراما إنسانيةً مكتملة الأركان :

بحثٌ ، شكٌّ ، اختبارٌ، يقينٌ ، تحوّل.

علّمنا أنّ الإيمان ليس قفزةً في الظلام ، بل مسيرةٌ في نورٍ يتزايد. وأنّ السؤال لا يُناقض اليقين ، بل يُنقّيه.

قال الحكيم:

إذا لم يزدد علمُ الفتى قلبَه هدىً فسعيُه في الأرضِ سعيُ ضلالِ.

وهكذا ، صار سلمانُ الفارسيُّ - العبدُ الغريب - أحد أعمدة المدينة الجديدة . مدينةٍ لم تُبنَ بالحجارة فقط ، بل بالقلوب . مدينةٍ صارت تُسمّى:

مدينة النبي.

وما كان سلمانُ يبحث عن علامةٍ في جسد ، بل كان يبحث عن طمأنينةٍ في صدر . فلما وجدها ، انتهى السؤال ، وبدأ التاريخ.

# بدر: همسُ الظلالِ ونورُ اليقين

لم تكن بدرٌ يومًا عابرًا في سجلّ الرمال ، ولا صفحةً تُطوى في كتاب الغزوات ، بل كانت مفترقَ روحٍ بين خوفٍ ورجاء ، بين همسِ الظلال ونور اليقين. هناك، حيثُ انفرج الفجرُ عن قدرٍ مكتوب ، وتماوجت النفوسُ بين شكٍّ و إيمان ، انكشف المستورُ في الصدور كما تنكشفُ الأرضُ عن كنوزها إذا مسّها المطر.

كانت المدينةُ يومئذٍ تغلي غليانَ القِدر المكتوم. في الأسواق ، خلفَ الدكاكين ، وعلى أطراف الأزقة التي تتساند بيوتها الطينية كأنها تتآمر على سرٍّ دفين ، كان الناسُ يتهامسون. بعضُهم يبتسمُ ابتسامةً مشوبةً بالريبة ، وبعضهم يعضّ على شفتيه خشيةَ أن يفلتَ من صدره ما يضمره.

في ركنٍ قصيٍّ من السوق ، اجتمع نفرٌ من اليهود وبعضُ المنافقين ، تتشابك كلماتهم كما تتشابكُ خيوطُ الليل . لم يكن حديثهم صريحًا ، بل كان كالدخان ؛ لا يُمسك ، لكنه يخنق.

قال أحدهم بصوتٍ خفيض :

أترون أنّ أمره يعلو ؟ أترون أنّه سيغلب قريشًا ؟

ردّ آخر ، وفي عينيه شررُ حقدٍ قديم :

إن انتصر اليوم ، اشتدّ عوده ، وإن انكسر ، انكسر معه أتباعه.

وتسللت الكلماتُ إلى الآذان كما تتسللُ الريحُ الباردة إلى الشقوق . و بلغ الهمسُ مسامع رجلٍ كان واقفًا غير بعيد ، يستمع دون أن يُرى ، كأنه ظلٌّ في ظلّ.

رفع رأسه قليلًا ، وحدّث نفسه حديثًا لم يسمعه أحد :

اليهود أهلُ كتاب... وإن كانوا قد بدّلوا وحرّفوا ، فهم يعرفون نُبوءاتهم ، ويقرؤون في أسفارهم إشاراتٍ إلى نبيٍّ يأتي في آخر الزمان. لو لم يكونوا يعلمون في أعماقهم أنّه هو ، لما حفلوا به هذا الحفل ، و لما اشتدّ حقدهم . ما كان ليُثير فيهم كلّ هذا القلق إلا أنّهم يستشعرون في ظهوره تهديدًا لميزانٍ اختلّ ، ومصالحَ فاسدةٍ أقاموها على ركام الحق.

ثم سكت، كأنما يخشى أن يسمعه قلبُه فيفضحه.

## X

وفي طرفٍ آخر من المدينة ، كان رجلٌ آخر يمشي بخطًى حذرة ، كأن الأرضَ تُراقبه . كان سلمان ، الغريبُ في نسبه ، القريبُ في بحثه. كلما سنحت له فرصة ، اقترب من مسجد رسول الله ρ ، وكلما غفل عنه مالكُ رقبته ، كعب بن أسد ، تسلّل كما يتسللُ الطيرُ إلى وكره.

كان يقف عند باب المسجد ، لا يجرؤ على الدخول أحيانًا ، ويكتفي بأن يرمق المشهد بعينين ظمأى.

هناك ، كان الصحابة يحفّون بالنبيّ في دائرة حبٍّ لم يرَ لها سلمان مثيلًا في حياته . لم يكن حبًا مصطنعًا ، ولا خضوعًا لسطوة ، بل كان سكينةً تنحدر على الوجوه ، وطمأنينةً تشرق في العيون.

كانوا يستمعون إلى القرآن يُتلى في وقار ، وكأنّ الكلمات تنزل على قلوبهم نزولَ الغيث على الأرض المجدبة.

تأمّل سلمان وجوههم ، فرأى فيها شيئًا لم يعرفه في قصور الفرس ، ولا في مدارس الرهبان : ابتسامة الاطمئنان ، وثقةً عميقةً برجلٍ لا يملك ذهبًا ولا سيفًا مسلولًا ، لكنّه يملك قلوبهم.

وتحرّك في داخله صوتٌ خفيّ:

هو والله... هو النبي . من أراد أن يستيقن ، فليقف موقفي هذا ، وليسمع ما أسمع ، وليرقب هذا الفيض من الحبّ الذي يتدفق من قلوب هؤلاء.

كان يرى أحدهم يناول الآخر تمرةً ، فيأبى أن يأكلها وحده . ويرى رجلًا يربّت على كتف أخيه كأنما يربّت على جرحه . بل كان يرى فيهم رحمةً حتى بالحيوان ، كأنّ الإيمان قد رقّق طباعهم حتى صارت القسوة غريبةً عنهم.

تمتم سلمان :

هو والله النبي... ما اجتمع هذا النور على باطل.

ثم عاد إليه الخوف ، كظلٍّ لا يفارقه . ماذا لو علم كعب ؟ ماذا لو افتُضح أمره ؟ أهو مستعدّ لأن يدفع ثمن يقينه ؟

X

وفي تلك الليلة، قبل أن تنطلق القافلةُ إلى بدر ، جلس رجلٌ من الأنصار في بيته ، يحدّق في السقف الطيني. كانت زوجته تراقبه بصمت.

قالت برفق :

أراك شاردًا يا أبا الحارث.

تنفّس بعمق ، و قال :

غدًا نخرج. ليست معنا عدّةٌ كثيرة ، ولا سلاحٌ يُذكر. قريشٌ جاءت بكلّ بطونها ، ونحن ثلاثمئةٍ وبضعة عشر.

سكت لحظة ، ثم أضاف بصوتٍ خافت :

أخشى على رسول الله

اقتربت منه زوجته ، وجلست إلى جواره :

ألم تقل إنك رأيت في وجهه طمأنينةً يوم خطب الناس ؟

أطرق رأسه ، ثم ابتسم ابتسامةً واهنة :

بلى... كأنّه يرى ما لا نرى.

ثم ارتفع صوته قليلًا ، كأنه يخاطب نفسه :

إن يكنْ قد قال اللهُ قولًا صادقًا ، فما لنا غيرُ المضيّ على الأثر
نموتُ إن متنا كرامًا أحرارًا ، أو نبلغُ النصرَ الموعودَ في بدر.

فقالت زوجته :

و الله ، ما خرجتم إلا لنصرة الحق ، ومن خرج لله، كفاه الله.

X

وفي الجهة الأخرى من المدينة ، كان المنافقون يعقدون حساباتهم كالتجّار . أحدهم قال :

دعوهم يذهبون . إن انتصروا ، قلنا : كنّا معهم بقلوبنا . وإن هُزموا ، قلنا : ألم نحذّركم ؟

ضحك آخر ضحكةً قصيرة :

هي السياسة يا صاحبي ، لا دين فيها.

لكنّ أحد الحاضرين ظلّ صامتًا ، ينظر إلى الأرض . كان الصراع ينهش صدره . أحقًّا هو على صواب ؟ أم أنّه يختبئ خلف عقلٍ باردٍ يخشى التضحية ؟

قال في سرّه :

أيُّ قلبٍ هذا الذي يرضى أن يقف على الحياد حين يُدعى إلى الحق ؟ أ أنا رجلٌ ، أم ظلّ رجل ؟

ثم تذكّر قولًا سمعه يومًا :

إذا لم تكنْ في كلِّ الأمورِ معاتبًا صديقكَ لم تلقَ الذي لا تعاتبه
فعِشْ واحدًا أو صِلْ أخاكَ فإنه مقارفُ ذنبٍ مرةً ومجانبه.

فهمس :

بل أنا المقارف... أنا الذي أُجالسهم وأُصغي.

X

وانطلقت القافلةُ إلى بدرٍ . كانت الرمالُ تمتدّ كبحرٍ صامت ، والسماءُ صافيةً كأنها تنتظر حدثًا عظيمًا . لم يكن في أيديهم من العتاد ما يطمئن القلب ، لكنّ في صدورهم يقينًا يعادل الجبال.

وقف النبيّ ρ يدعو ، يرفع يديه إلى السماء، وكأنّ بينه وبين ربّه سرًّا لا يُدركه سواه . كانت الكلماتُ تنساب من شفتيه رجاءً وخشوعًا ، حتى قال بعض الصحابة :

حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك.

لكنّه كان يرى ما وراء اللحظة ؛ كان يرى أمةً تولد من رحم المعركة.

وفي صفوف المسلمين ، كان سلمان يقف ، وقد تحرّر قلبه وإن لم يتحرّر جسده بعد. شعر أنّه على عتبة ميلادٍ جديد.

دار في داخله حوارٌ عاصف :

إن قُتلوا اليوم ، ضاع الحق ، بل إن قُتلوا اليوم ، صار دمهم مشعلًا.

وماذا عنك ؟

أنا ؟ أنا بين خوفٍ ورجاء. لكنّي أعلم أنّ هذا الرجل لا يكذب.

وتردّد في صدره بيتٌ سمعه من قبل :
وما الخوفُ إلا ما تخوّفه الفتى ولا الأمنُ إلا ما رآه الفتى أمنًا.

فقال :

خوفي من الناس ، وأمني في الله.

X

ثم التحم الجمعان.

لم تكن بدر مجرّد صليل سيوف ، بل كانت اختبارَ قلوب . رأى بعض المسلمين في عيون خصومهم أقرباء وأصدقاء الأمس ، لكنّ الإيمان غلب العصبية . وسقط أوّل شهيد ، فارتجف قلبُ شابٍّ في الصفّ الخلفي.

قال لنفسه :

أهذه هي النهاية ؟

ثم تذكّر قول النبيّ عن الجنة ، فشعر كأنّ أبوابًا من نورٍ تُفتح أمامه.

أما في الطرف الآخر ، فقد بدأ الاضطراب يدبّ في صفوف قريش. لم يتوقّعوا أن يقاتل هؤلاء القلّة بهذه الشراسة . كان في وجوههم شيءٌ لا يُشترى: الثقة.

وما هي إلا ساعات ، حتى انقلبت الموازين . وارتفع التكبير في صحراء بدر ، كأنه زلزلةٌ في وجه التاريخ.

X

وفي المدينة، حين بلغ الخبر ، تغيّرت الوجوه . من آمن ازداد إيمانًا ، ومن نافق ازداد حيرةً . أما أولئك الذين كانوا يتهامسون ، فقد سكتوا لحظةً ، ثم عادوا إلى همسٍ أشدّ.

قال أحدهم :

كانت صدفة.

وقال آخر :

لعلّهم تحالفوا مع قوى خفية.

لكنّ الحقيقة كانت أقوى من التأويل.

وفي زاوية المسجد ، وقف سلمان ، وقد أشرق وجهه بنورٍ جديد. لم يعد ذلك الرجل المتردّد . اقترب من النبيّ ، ونظر في عينيه نظرةً طويلة ، كأنّه يبايعه بعينيه قبل لسانه.

و قال في نفسه ، هذه المرّة بصوتٍ ثابت :

هو والله النبي .

لو لم يكونوا يعلمون ، ما اشتدّ حقدهم ، ولا تربّصوا به هذا التربّص . إنّما يخافون أن يُعاد ميزان الحياة إلى عدله ، وأن يُكشف زيفُ ما أقاموه.

ثم انحنى قلبُه ساجدًا قبل جسده.

X

لم تكن بدر نهاية صراع ، بل بدايته . كشفت القلوب كما تكشف النارُ معدنها . أظهرت المؤمن الصادق ، والمنافق المتلوّن ، والحاسد الذي يأكله غيظه.

لكنّها ، قبل ذلك وبعده ، كانت درسًا في أن الحقّ قد يكون قليل العدد ، عاريَ السلاح ، لكنه إذا اتصل بالسماء ، صار أقوى من كلّ حساب.

وصدق القائل:

وإذا كانت النفوسُ كبارًا  تعبتْ في مرادها الأجسامُ.

وفي تلك الأيام ، تعبت الأجسام ، لكنّ النفوس كبرت ، حتى غيّرت مجرى التاريخ.

وهكذا ، ظلّت بدرُ شاهدًا على أنّ الهمس لا يغلب الصوت إذا كان الصوت حقًّا ، وأنّ الحقد مهما اشتدّ ، لا يطفئ نورًا أذن الله له أن يشرق.

# على شفير النبوءة

## حوار الظلال في يثرب

في ليالي يثرب ، حين كانت الرياح تمرّ على نخيلها كأنها أنفاسُ تاريخٍ طويل ، وتتناثرُ همساتُ القبائل بين حصونٍ عتيقةٍ كأنها صدورٌ ممتلئةٌ بأسرارٍ لا تُقال ، كان بيتُ كعب بن أسد قائماً على ربوةٍ تطلّ على البساتين . بيتٌ كأنّه صفحةٌ من سفرٍ قديم ، كُتب بالحبر والقلق معاً.

كان الليلُ يومئذٍ مُثقلاً بالأسئلة. والقمرُ يتدلّى فوق الحصون كأنه عينٌ سماويةٌ ترقب ما يُدبَّر في الصدور.

جلس كعب، سيدٌ من سادة قومه ، يتأمّل عبدهم الفارسيّ الذي كان يسقي الأشجار عند المغيب. وكان في عينيه قلقٌ يضرب جذوره في أعماقٍ لا يراها أحد.

قال لزوجه ، بصوتٍ أراد له أن يكون ساخراً ، فإذا به مشوبٌ بارتباكٍ خفيّ:

يا راحيل ، ألم ترمقي عبدنا هذا الفارسيّ ؟

رفعت راحيل رأسها من بين جدائلها ، وقد انعكس ضوء السراج على وجهٍ أنهكه الزمن ، وأضناه الترقّب.

قالت بحدّةٍ ممزوجةٍ بدهشة :

ويحك يا كعب ! أَتتّهمني به ؟

ضحك كعب ، لكن ضحكته كانت قصيرةً كأنها سقطت قبل أن تكتمل.

يا امرأة، لقد ذهب عقلك إلى غير ما ذهب إليه عقلي . ما أشدّكنّ شوقكنّ إلى حسان الرجال ، معشر اليهوديات !

ضحكت راحيل ، ضحكةً كانت تعرف كيف تُخفي بها ما لا تريد إظهاره . كانت تعلم أن زوجها ، رغم قسوته الظاهرة ، يعرف ما لا يُقال عن خيانتها . وكان يعرف أيضاً أنّ القبح لا يحول دون نزوة ، وأن الشهوة بابٌ لا يُغلق.

قالت وهي تلوّح بيدها :

دعنا من هذا ، وخبرني إلى ما ذهب إليه عقلك ؟

تنفّس كعب ببطء . نظر إلى البستان ، كأنّ الأشجار قد تُصغي إليه.

ما أحسبه قد جاء من أقصى الشرق إلا ليتّبع محمداً.

حين نطق الاسم ، خفت صوته ، كأنّ الاسم نفسه نارٌ تحرق الحلق.

لقد راقبته ، فإذا هو يتردّد كثيراً على صاحبه عبد الله بن سلول. وقد أسلم الفتى عبد الله ، وإن زلّ أبوه على شركه ، تحرّكه في فضاء محمد كيف شاء. وإني أخاف- وحقّ يهود- أن يفشي أسرارنا إلى محمد.

لقد سمع الفتى ما نتهامس به أحياناً من نبوة محمد ، وعن ذكره في التوراة.

سكت. وسكتت معه الريح.

كانت الكلمات التي لم تُقل أكثر حضوراً من تلك التي قيلت.

X

غاص كعب في داخله، حيث يقيم صراعٌ قديم.

كان يعرف. نعم ، كان يعرف.

لم تكن نصوص التوراة غريبةً عنه. لقد قرأ ، وفسّر ، ووعظ. كان يحفظ بشاراتٍ ظلّت تتردّد في أسماعهم جيلاً بعد جيل. وكانوا- حين يشتدّ بأس العرب عليهم- يقولون : سيخرج نبيٌّ في آخر الزمان ، فنقاتلكم معه قتال عادٍ وإرم.

وكانوا يستفتحون به على العرب. لكن ما لم يتوقّعوه أن يكون النبيّ من العرب. أن يكون من أولئك الذين كانوا يستصغرونهم. أن يُؤتى الملكُ من غير بيتهم.

قالت راحيل ، وقد بدت في عينيها لمعةُ وعيٍ حادّ :

وحتى متى يا كعب تنكر نبوّته ؟ أنت تعرف أن محمداً هو النبيّ الذي كنّا ننتظره.

ارتعش قلبه ، لكن وجهه بقي صلباً.

ويحكِ يا راحيل ! نعترف بنبيٍّ من العرب ؟ أتدركين ما وراء ذلك ؟ وراءه زوالُ اليهود من الأرض إلى آخر الدهر !

سكتت قليلاً ، ثم قالت بصوتٍ أقلّ حدّة ، وأكثر عمقاً :

أليس هذا ما جاء في التوراة ؟ أليس فيها أن شعبنا سيزول من فوق الأرض بعد ألفي عام من موسى ؟ سنتشتّت في الأرض ، ونحاول جهدنا أن نثبت بمكانٍ نُطرد منه أهله ، ونعمّق جذورنا ، ونكتب ما جاء في توراة موسى ، ولكن هيهات... لا مهرب مما كتب الله علينا.

كان كلامها كالسهم.

قالت بيتاً من الشعر كأنها تستنجد به :

وما الدهرُ إلا راحـلٌ ومقيمُهُ  إذا جاء أمرُ الله ضاق الحليمُ

ظلّ كعب صامتاً.

كان يسمع صوتين في داخله . صوت الإيمان الذي يهمس : هذا هو . وصوت الزعامة الذي يصرخ : إن اعترفتَ به، انتهيت.

لقد بنى مجده في يثرب حجراً فوق حجر. له حصون ، وله رجال، وله نفوذٌ في الأسواق. كانت له جذورٌ عميقة ، كما قال. وكان يخشى أن يأتي محمد ، فيقتلعها اقتلاعاً.

قال ببطء :

بل نحن في يثرب ، وأنا لي جذورٌ قوية ، لا يجسر أحدٌ على نزعها من بطن الأرض. ولكن... ماذا لو فعل ذلك محمد ؟

اقتربت راحيل منه. لأول مرةٍ في ذلك الليل ، لم يكن في صوتها سخرية.

وما أدراك ؟ أليس هو الذي غيّر وجوه الرجال ؟ أليس هو الذي جعل من الأوس والخزرج إخوةً بعد دماء ؟ إن كان نبيّاً حقّاً ، فلن تنفعك الحصون.

تنفّس كعب بعمق.

في داخله ، تردّد قولٌ قديم:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى  فأولُ ما يجني عليه اجتهاده

قال في نفسه :

أ أنا أخاف على الدين ؟ أم أخاف على الملك ؟

سؤالٌ بسيط ، لكنه كالسيف.

تذكّر الليالي التي كان فيها مع أحبار قومه ، يقرأون سفر التثنية ، ويشيرون إلى علامات النبيّ القادم. كانوا يقولون : من إخوتكم . وكانوا يؤوّلونها.

لكن محمدًا كان يقرأ ما عندهم كأنه واحدٌ منهم.

وكان عبدهم الفارسي- ذلك الغريب- ينظر إلى السماء كمن وجد ضالته.

قال كعب فجأة :

إن اعترفنا به ، سقطت ريادتنا. لن نكون شعب الاختيار ، بل سنكون تابعين لنبيٍّ من العرب.

قالت راحيل ، وقد بدت كأنها ترى ما لا يراه :

أو لعلّنا نكون من السابقين إليه ، فنحفظ لأنفسنا مكاناً عنده.

ضحك كعب ، لكن ضحكته هذه المرّة كانت مرّة.

السياسة يا راحيل ليست نبوءةً تُقرأ ، بل موازين قوى. إن تبعناه اليوم ، ضاعت هيبتنا بين قومنا. وإن خالفناه ، فنحن في خطر.

قالت:

كلّ طريقٍ فيه خطر. ولكن أيّهما أخطر : أن تخالف نبيّاً ، أم أن تخسر ملكاً ؟

تأمّلها طويلاً.

كانت راحيل ، رغم عيوبها ، تملك حدساً حادّاً. وكانت تعرف أنّ التاريخ لا يرحم المتردّدين.

قالت بصوتٍ خافت :

يا كعب ، إن كنتَ تعلم في قرارة نفسك أنه نبيّ ، فاحذر أن تكون ممن قال الله فيهم : يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ثم يكتمون الحق.

ارتجف قلبه . كان يعرف الآية التي تقصد . وكان يعرف نفسه.

قال في سره :

أنا لستُ جاهلاً . أنا عالمٌ بما في الكتب . ولكن... ماذا عن قومي ؟ ماذا عن وجوه الرجال الذين يثقون بي ؟ أ أقودهم إلى نبيٍّ من غيرهم ؟

شعر للحظةٍ أنه طفلٌ صغير ، يقف بين أبيه وأمه ، وكلٌّ منهما يجذبه إلى جهة.

ثم قال بصوتٍ مبحوح :

إن محمداً إن قوي ، فلن يبقى لنا في يثرب قرار. سيعلو ذكره ، وتخفت أسماؤنا. وسنكون صفحةً في كتابه ، لا كتاباً قائماً بذاته.

قالت راحيل :

وهل يهمّك أن تبقى اسماً ، أم أن تبقى على حقّ ؟

طال صمته . ثم تمتم :

إنّي أخاف... لا على نفسي فقط ، بل على تاريخٍ كامل. إن سقطنا هنا، سنُبعثر في الأرض.

قالت:

لعلّ هذا هو المكتوب.

وسكتا.

خارج البيت ، كان العبد الفارسيّ يرفع بصره إلى السماء ، ويتمتم بشيءٍ لم يسمعاه. وكان في وجهه نورُ بحثٍ طويلٍ انتهى إلى يقين.

وفي قلب كعب ، كانت العاصفة تتصاعد.

قال في نفسه :

أأحارب ما أوقن به ؟ أأخاصم ما أراه حقّاً ؟ أم أدفن يقيني تحت أقدام السياسة ؟

كان الليل يقترب من الفجر. والفجر- حين يأتي - لا يستأذن أحداً.

قال كعب أخيراً، كأنّه يحسم أمراً :

سنراقب. لن نعجل. إن اشتدّ أمر محمد ، نظرنا في أمرنا.

قالت راحيل :

والتاريخ لا ينتظر المتردّدين يا كعب.

ابتسم ابتسامةً باهتة :

بل يصنعه الأقوياء.

قالت:

أو يصنعه المؤمنون.

نظر إليها طويلاً . ثم نهض . فتح النافذة. دخل نسيمٌ باردٌ ، كأنّه نذيرُ فجرٍ قريب.

وفي الأفق ، كانت يثرب تستعدّ لمرحلةٍ جديدة ، لا يعلم أحدٌ كيف تنتهي.

أما كعب، فبقي واقفاً ، بين كتابٍ يؤمن به ، ونبيٍّ يخشاه ، ومِلكٍ لا يريد أن يفقده.

وكانت نفسه تردّد ، في عمقها البعيد :

نعيبُ زمانَنا و العيبُ فينا وما لزمانِنا عيبٌ سوانا

ونخشى الحقَّ إذ يأتي جليّاً ونركضُ خلف ظلٍّ من هوانا

وهكذا ظلّ، على شفير النبوءة ، معلّقاً بين يقينٍ يكتمه ، وقرارٍ يؤجّله ، وتاريخٍ يوشك أن يطويه كما تُطوى صفحةٌ من سفرٍ قديم.

ﷺ

# سلمان الباحث عن الحقيقة

## حين انكشف السر بين الكتفين

في تلك الأيام التي كانت فيها يثرب تتقلب بين نخيلها كعروسٍ تستعدّ لقدَرٍ عظيم ، كان رجلٌ فارسيّ الروح ، عربيُّ الشوق ، يمشي بخطواتٍ يختلط فيها الترقّب بالخوف ، والرجاء بالحذر . كان اسمه سلمان ، عبدًا في ظاهر الناس ، حرًّا في أعماق نفسه ، يحمل في صدره وصايا قسٍّ شيخٍ في صومعةٍ بعيدة من أرض فارس ، حدّثه عن نبيٍّ يُبعث في آخر الزمان ، مهاجرٍ إلى أرضٍ ذات نخل ، لا يأكل الصدقة ، ويقبل الهدية ، وبين كتفيه خاتم النبوة.

كان سلمان ، وهو عبدٌ لكعب بن أسد ، قد ذاق من تقلّبات الحياة ما يذيب الصخر ، وتنقّل بين أديانٍ وبلاد ، باحثًا عن النور كما يبحث الغريق عن قبسٍ في العتمة . وكان يقول في سرّه:

أ أضلُّ الطريقَ وكلُّ الأرضِ منفاي ؟ أم أنّ في القلبِ بوصلةً لا تخون ؟ .

إذا ضاقَ صدري ، ناديتُ ربّي :

يا ربّ ، دلّني عليك ، فإنّ الطريقَ إليك هو الوطن.

X

العلامة الأولى: الصدقة التي لم تُؤكل

أعدّ سلمان طعامًا بيده ، لم يكن كثيرًا ، لكنه كان مشبعًا بنيّةٍ أعظم من الشبع ؛ نيّة الامتحان الأخير لقلبٍ أضناه الترحال . ومضى إلى رسول الله ﷺ ، وقد كان الصحابة جلوسًا حوله في بساطةٍ مهيبة.

تقدّم سلمان بخطواتٍ مترددة ، وقال بصوتٍ فيه خشوع الباحث لا جرأة المدّعي :

—يا أيها الرجل الصالح ، هذا كان عندي للصدقة ، فرأيتكم أحقّ به من غيركم ، تناول من طعامي أيها الرجل الصالح.

نظر إليه رسول الله ﷺ نظرةً هادئة ، ثم قال لأصحابه أن يأكلوا ، وأمسك هو يده ، فلم يمدّها إلى الطعام.

كان سلمان يرقب المشهد كمن يرقب حركة النجوم. قلبه يخفق :

لا يأكل الصدقة... هكذا قال القسّ العجوز وهو يحتضر ، وعيناه تشعّان يقينًا : سيأتي نبيٌّ لا يأكل الصدقة . أهذه أولى العلامات ؟ أ أوشك الليل أن ينقشع؟

وفي تلك اللحظة ، سأله أبو بكر الصديق ، وقد كان يقرأ الوجوه كما تُقرأ الكتب:

أنت الفارسي عبد كعب بن أسد ، أليس كذلك ؟

أجل يا سيدي.

قال أبو بكر برفقٍ عجيب:

فأنت إذن تعلم أن رسول الله ﷺ لا يقبل الصدقة . أما نحن فلسنا برسل ولا أنبياء. اجلس وتناول معنا طعامك.

كانت كلمات أبي بكر كنسمةٍ على قلبٍ محترق . عاد سلمان إلى غرفته الفقيرة في حصن كعب بن أسد ، وغرفته بالكاد تتّسع لجسده ، لكنها في تلك الليلة اتّسعت لأحلامه كلّها.

ارتمى على فراشه ، و السعادة تغمره ، و قال في نفسه :

تلك أولى العلامات... لا يأكل الصدقة . يا ربّ ، أ هذا هو ؟ أ أكون قد بلغت المرفأ بعد طول التيه ؟

وقال في همسه :

إذا صدقَ الرجاءُ أتى اليقينُ ، كفجرٍ لاحَ من بعدِ السنينِ ، وما خابَ امرؤٌ طرقَ السماءَ ، بقلبٍ خاشعٍ ودموعِ عينِ

X

العلامة الثانية: الهدية التي قُبلت

لم ينم سلمان إلا قليلاً . كان عقله مسرحًا لحوارٍ لا يهدأ . كان يخاطب نفسه :

رويدك يا سلمان... كم من مرّةٍ ظننتَ أنك وجدتَ الطريق ثم انقلبت بك الخطى ؟ لا تتعجّل. بقيت علامة أخرى.

وفي اليوم التالي ، أعدّ طعامًا جديدًا . هذه المرة لم يسمّه صدقة . حمله ومضى.

وقف بين يدي رسول الله ﷺ وقال:

أيها الرجل الصالح ، علمت البارحة أنك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية أكرمتك بها ، فلا تردّني ، وتناول منها مع أصحابك.

ابتسم رسول الله ﷺ ، ومدّ يده ، وأكل ، وأكل الصحابة معه.

كان المشهد بسيطًا في ظاهره ، لكنه في قلب سلمان كان زلزالًا.

يأكل الهدية... ويكافئ عليها... ولا يأكل الصدقة. ثانية العلامات.

عاد إلى غرفته ، و ارتمى على فراشه قرير العين ، يتمتم :

غدًا أشهد العلامة الثالثة... خاتم النبوة. لكن كيف أنظر إليه ؟ و كيف أرى ما بين كتفيه ؟

كان القسّ قد قال له وهو يسلّمه آخر وصاياه :

ستراه بين كتفيه ، كبيضة حمامة ، أو كشامةٍ تضيء. إذا رأيته ، فلا تتردد.

لكن كيف يُتاح لعبدٍ غريبٍ أن يحدّق في ظهر رجلٍ تحفّه هيبة النبوة، وأصحابه حوله كالنجوم حول القمر ؟

جنازة كلثوم بن الهدم: اللحظة الفاصلة

مات صاحبٌ من أصحاب رسول الله ﷺ ، كلثوم بن الهدم ، فخرج النبيّ ﷺ في جنازته ، يمشي معه حتى مرقده الأخير ، ويسوّي قبره بيديه الشريفتين ، ويرفع كفّيه إلى السماء بالدعاء.

وقف سلمان بعيدًا ، قلبه يخفق كطائرٍ في قفص.

لعلّ الشملة تنزلق عن ظهره... لعلّي أرى العلامة...

كان النبيّ ﷺ عليه شملتان. ورفع يديه إلى السماء ، فانكشفت أطراف كتفيه قليلًا. دار سلمان حوله ، يتظاهر بأنه يبحث عن موضعٍ يقف فيه ، لكن الحقيقة أنه كان يبحث عن اليقين.

رآه عمر بن الخطاب ، وتوجّس الشر من كثرة دورانه.

اقترب منه عمر ، و صوته كالسيف :

يا سلمان ، ما خطبك ؟ ما لك تدور حول رسول الله ﷺ ؟

ارتبك سلمان، وقال بخضوع :

ما قصدتُ غير الخير يا سيدي.

قال عمر بحدّةٍ لم تخلُ من حرص :

إنك عبد كعب بن أسد ، من أخبث يهود ، فأنا أتوجس منك.

كان في كلمات عمر خوفٌ على رسول الله ، لا سوء ظنٍّ مجرّد. وتدخّل عبد الله ، صديق سلمان ، و قال :

يا أبا حفص، سلمان صاحبي.

قال عمر :

ألا ترى يا عبد الله كيف يدور حول رسول الله ﷺ ؟

قال عبد الله موجّهًا حديثه لسلمان :

يا سلمان، ما دورانك حول رسول الله؟ إخواني يخشون منك فانتهِ.

رفع سلمان رأسه ، وفي عينيه صدقٌ يلمع :

يا عبد الله، إنك والله تعرف غير هذا. والله إني أحب صاحبكم مثلما تحبونه، وأفديه بنفسي كما تفدونه بأنفسكم، غير أن...

قاطعه عمر:

ها قد فرغ رسول الله ﷺ و جاءنا ، كأنما علم بما نقول... يا رسول الله ، هذا سلمان الفارسي ، عبد كعب بن أسد.

انكشاف السر: أهذه بغيتك يا سلمان ؟

اقترب رسول الله ﷺ ، وعلى وجهه ابتسامته الحلوة المطمئنة. نظر إليهم طويلًا، نظرة رفقٍ وحنانٍ كأنها تمسح القلق من القلوب.

ثم فعل أمرًا لم يكن في حسبان سلمان.

ألقى البردة عن كاهله ، وأشار إلى ظهره ، وقال في لطفٍ يفيض علمًا:

أ هذه بغيتك يا سلمان ؟

تجمّد الزمن.

رأى سلمان خاتم النبوة بين كتفيه الشريفتين ، العلامة الثالثة التي جاءت في أوراق القسّ. لم يكن مجرّد شامة ، بل كان عند سلمان ختم السماء على الأرض.

يقول سلمان بلسانه :

والله ما كنت في حاجةٍ إلى هذه العلامات حتى أستيقن أن محمدًا رسول الله هو النبيّ الخاتم الذي ننتظره ، لينير قلوب الناس بالإيمان بربّ العالمين الواحد الأحد ، لا شريك له.

اقترب، مدّ يده، مسّ الخاتم ، فارتعد جسده كله .

كان ارتعاشه ليس خوفًا ، بل انكسارًا أمام الحقيقة.

و تمتم :

يا خاتمَ النور في ظهر النبيّ  يا سرَّ ربٍّ تجلّى في البريّة

لامستُكَ ، فاهتزَّ كياني كأنّي لامستُ بابَ الأبدية

وسقط على ركبتيه ، يبكي.

X

في تلك اللحظة ، لم يكن سلمان عبدًا لكعب بن أسد ، بل كان عبدًا لله وحده. انكسرت قيودٌ غير مرئية ، أعمق من قيود الرقّ.

دار في داخله حوارٌ عاصف :

يا سلمان ، كم بعتَ من عمرك في سبيل هذه اللحظة ؟ تركتَ أباك ، وبيتَك ، ونار المجوس ، و صوامع الرهبان... بيعْتَ نفسك عبدًا ، لتشتري حرية الروح .

أ هذا هو الثمن ؟

نعم... والله لو طُلب منك عمرك كلّه ثمنًا لهذه اللحظة ، لكان قليلًا.

تذكّر القسّ الشيخ ، وهو يقول له :

يا بني ، إن أدركتَه ، فأقرئه مني السلام.

رفع سلمان رأسه ، ونظر إلى رسول الله ﷺ بعينٍ ملؤها الحبّ و اليقين ، و قال :

أشهد أنك رسول الله.

كانت شهادةً خرجت من قلبٍ عبر الصحارى والبحار.

X

اقترب عمر ، وقد تبدّل في وجهه شيء. لم يكن فيه الآن حدّة الاتهام ، بل دهشة الاكتشاف.

قال عمر بصوتٍ هادئ :

يا سلمان ، ما الذي جاء بك إلى هذا كله ؟

قال سلمان ، وفي صوته عمق السنين:

جاء بي الظمأ يا ابن الخطاب . ظمأ الروح إذا عطشت لا يرويها إلا الحق . كنت أبحث عن ربٍّ لا تغيب شمسه ، وعن نبيٍّ لا ينطفئ نوره.

سكت عمر لحظة ، ثم قال :

لقد أحسنت الظنّ بربّك إذ دلّك.

قال سلمان :

بل هو الذي أحسن إليّ ، فهداني بعد تيه.

و قال عمر :

إذا ما هدى الرحمنُ عبدًا  فلس يُضِلُّه سيفٌ ولا نار

ومن طلبَ الإلهَ بصدقِ قلبٍ  أتاه الحقُّ في أبهى الأنوار

X

لم يكن إسلام سلمان حدثًا فرديًا فحسب ، بل كان إعلانًا أن هذا الدين ليس حكرًا على قومٍ دون قوم. كان الفارسيّ يقف إلى جوار العربيّ ، و العبد إلى جوار السيّد ، تحت رايةٍ واحدة.

صار سلمان بعد ذلك يُقال له : سلمان منّا أهل البيت.

تلك الكلمة لم تكن تشريفًا فحسب ، بل كانت ترميمًا لجراح الغربة.

في داخله كان يقول :

ما عدتُ غريبًا . لقد وجدتُ وطني في عقيدة ، و أهلي في أمة ، و أبي في نبي.

X

حين مسّ سلمان خاتم النبوة ، لم تكن تلك نهاية البحث ، بل بداية الطريق . ارتعش جسده ، لكن قلبه استقرّ.

كان الليل قد أرخى سدوله على المدينة ، والنجوم تلمع في سمائها ، وسلمان يسير وحده، لكنه لم يكن وحيدًا.

قال في نفسه :

يا ربّ ، ها أنا ذا بين يدي نبيّك ، عبدٌ لك وحدك . إن كانت قد بقيت قيودٌ في عنقي ، فاجعلها في سبيلك . و إن كان في عمري بقية ، فاجعلها نصرةً لدينك.

و ختم همسه ببيتٍ من الحكمة :

و من يطلبِ الحقَّ العظيمَ بنفسِه  يلاقِ من الآلامِ ما يتجلّدُ

و لكنَّه إن صبرَ اليومَ ساعةً  رأى فجرَ حقٍّ في غدٍ يتجدّدُ

و هكذا ، لم يكن مسّ الخاتم مجرّد لمس جلدٍ طاهر ، بل كان مسًّا لعهدٍ جديد بين عبدٍ وربّه ، بين باحثٍ ويقين ، بين غريبٍ ووطن.

كانت تلك اللحظة التي انكشفت فيها البردة ، فانكشف معها سرّ قلبٍ ظلّ سنواتٍ يطرق أبواب السماء... حتى فُتح له الباب.

# سلمان الفارسي

## سيرة الروح التي عبرت النار والماء حتى بلغت النور

وما كلُّ من يهوى الجمالَ بمُدركٍ

ولا كلُّ من يطلبُ الهدى بمهتدِ

كان المساء يهبط على يثرب هبوطًا وديعًا ، كأن السماء تُسدِل أستارها على مسرحٍ تتهيأ فيه الأرواح لحدثٍ جلل. النسيم يحمل رائحة النخيل ، والقلوب ترتجف كما ترتجف سعفاتُه تحت ريحٍ خفية . في ذلك الركن من المدينة ، كان رجلٌ يهتزّ كيانه بين ماضٍ يذوب ، ومستقبلٍ يتشكّل.

قال لي صاحبي عبد الله بن أبي في صوتٍ مُندى بالدمع ، كأن الحروف تخرج من قلبٍ مغسولٍ باليقين :

الآن استيقنتَ يا سلمان...

رفعتُ بصري إليه ، وقد شعرتُ أن روحي تُنتزع من صدري انتزاعًا ، لا ألم فيه بل انعتاق. كانت عيناه تضطربان ، لا أدري أفرحًا أم حيرة . وقبل أن أجيبه ، دوّى صوتٌ جهوريٌّ يحمل دهشةً صادقة :

قال عمر بن الخطاب :

ماذا جرى لصاحبك يا عبد الله ؟ يرتجف كأنما لا تحمله قدماه ! أجلس يا سلمان ، أجلس كما أمرك رسول الله ﷺ .

جلستُ، لكن قلبي ظلّ قائمًا ، يركع ويسجد في آنٍ معًا.

قلتُ، وقد اهتزّ كياني كلّه بالإيمان الجديد الذي غزاني كما يغزو الفجرُ ظلمةَ الليل :

طاعةً لأمر رسول الله ﷺ ... يا رسول الله، دعني أقبّل يديك الشريفتين... أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك رسول الله، يا سيدي محمد. أشهد أنك كما ذكرت التوراة والإنجيل ، رسولٌ إلى الناس كافة ، أسودهم وأحمرهم ، عبدهم وحرّهم.

X

منذ طفولتي ، كنتُ أبحث عن الله كما يبحث العطشان عن قطرة ماءٍ في صحراء لا تنتهي . ولدتُ في أرض فارس ، بين نارٍ تُعبد ، وكبرياءٍ يُجلّ ، وتقاليد تُكبّل الروح بقيودٍ من ذهب. كان أبي يريدني سادنًا للنار ، حارسًا لها ، لكنني كنتُ أرى في وهجها صمتًا مخيفًا. أيُعبد ما لا يسمع ؟ أيُرجى ما لا يجيب ؟

تُطفئُ النارُ ريحٌ عابرةٌ  فكيفَ تُحيي القلوبَ جمادُ ؟

هربتُ من قصر أبي كما يهرب الطير من قفصٍ مُذهّب . تنقّلت بين الرهبان ، من شامٍ إلى موصل ، ومن نصيبين إلى عمورية . كنتُ أفتّش عن النبي الموعود ، عن العلامات التي أخبروني بها: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، ويخرج في أرضٍ ذات نخل.

وفي يثرب ، وجدته.

وجدتُ في وجهه نورًا ليس من نور الشمس ، بل من نورٍ إذا أشرق في القلب لم يطفأ أبدًا . كان محمدٌ ﷺ ، لا كملوك الأرض ، ولا كقساوسة الدير ، بل كأبٍ رحيم ، وكقائدٍ لا يعرف الظلم.

X

منذ أسلمتُ ، لم يعد يعنيّ في هذه الدنيا شيء . لا الحرمان من الطعام الذي عاقبني به كعب بن أسد حين علم بإسلامي ، ولا بحر السياط التي ألتهب بها ظهري ، ولا النظرة النارية الغاضبة في عيني راحيل ، التي طالما راودتني عن نفسي فاستعففت.

كنتُ عبدًا في الجسد ، لكنني حرٌّ في الروح.

غير أن شيئًا واحدًا كان يمزّقني : حرماني من سعادة التطلع إلى وجه رسول الله ﷺ ، ومن الاستماع إلى القرآن من فمه الشريف . كنتُ أختلس اللحظات كما يختلس الفقير رغيفًا من سوقٍ مزدحم.

وفي صباحٍ تهيأت فيه القلوب للخروج إلى أحد ، هرعتُ إليه.

قلتُ ، والنار في صدري لا تقلّ عن نار المجوس التي تركتها :

يا رسول الله، ائذن لي بالخروج معك لحرب أعداء الله.

نظر إليّ نظرةً حملت من الرحمة ما لا تحتمله الجبال . قال :

إنك في ملك يهود، وبيننا وبينهم حلفٌ لا ننقضه بخروجك.

اهتزّ قلبي . كأن بابًا فُتح ثم أُغلق .

فماذا أفعل يا رسول الله حتى لا أُحرم من ثواب الجهاد مع المسلمين ؟

قال ﷺ :

كاتب كعب بن أسد على حريتك.

خفضتُ بصري .

يا رسول الله ، إني لا أملك ما أُكاتب به اليهودي ، وهو شديد الطمع. ما أحسبه يهبني حريتي إلا بالكثير مما لا أستطيع جمعه طيلة حياتي.

فقال ، وفي صوته يقينٌ يسكب الطمأنينة :

كاتبه، ونحن نعينك.

X

دخلتُ على كعب بن أسد ، وفي صدري إيمانٌ جديد ، لكن في يدي قيدٌ قديم.

قال في حقدٍ ظاهر :

نريد أن تسترد حريتك لتضعها من جديد في يد محمد ؟ أما أنا ، فوالله ما أريد فيك أقلّ من أربعين أوقية فضة!

قلتُ ، وأنا أبتلع مرارة العجز :

يا سيدي ، أنت تعلم أنني لا أملك هذا القدر ، فأنت لا تعطيني شيئًا لقاء عملي.

و تدخل صاحبي عبد الله بن أبي في الصفقة ، و قال :

يا سلمان ، قبلنا شرط كعب بن أسد.

ابتسم كعب ابتسامةً كأنها نصل سيف .

على رسلك يا عبد الله ، لم أنته بعد . أريد أن يزرع لي سلمان في البستان الغربي ثلاثمائة نخلة صغيرة.

كأن الأرض مادت بي .

يا سيدي ، هذا يستغرق أعوامًا وأعوامًا !

ساخرًا قال :

أتحسبني أفرّط في رجلٍ مثلك بثمنٍ زهيد ؟

قال عبد الله بحزم :

قبلنا شروطك يا كعب بن أسد.

عاد كعب إلى السخرية :

ما أحسبك وصاحبك قادرين على الوفاء بما طلبت.

قلتُ ، وأنا أرفع بصري إلى السماء :

الله يعينني على أمري يا سيدي. و من يتوكل على الله فهو حسبُه إنّ الإلهَ لما يشاءُ فعولُ

X

خرجتُ من عنده، وروحي بين رجاءٍ وخوف. كيف لي بأربعين أوقية فضة ؟ وكيف لي بثلاثمائة نخلة ؟

لكن المدينة لم تتركني وحدي.

جاءني الصحابة ، هذا يحمل فسيلة ، وذاك يحفر حفرة ، وآخر يسقي . ورأيت رسول الله ﷺ بيده الشريفة يغرس النخل معي. كنتُ أنظر إلى يديه ، و أقول في نفسي :

أيّ عبدٍ أنا حتى يغرس رسول الله لي نخلي ؟

كل نخلة كانت دمعة ، وكل حفرة كانت صلاة ، وكل قطرة عرق كانت شهادة على أخوّةٍ لم تعرفها أرض فارس ولا صوامع الشام.

وأعطاني رسول الله ﷺ ما استوفى به ما طلب اللعين كعب بن أسد من فضة ، حتى اكتمل الثمن.

وفي اليوم الذي أعلن فيه كعب حريتي ، شعرتُ أن السلاسل لم تكن في يديّ ، بل كانت في قلبي ، وقد انكسرت.

X

منذ يومها، لزمتُ رسول الله ﷺ ، ولم أفارقه ساعةً من زمن. كنتُ أتعلم منه كيف يكون الإنسان حرًّا ولو كان فقيرًا ، عزيزًا ولو كان غريبًا ، ثابتًا ولو تكالبت عليه الأمم.

كنتُ أقول في خلدي :

يا سلمان، لقد كنتَ تبحث عن الله في النار ، ثم في الدير ،ثم في الكتبة ، فوجدته في قلبٍ يمشي على الأرض.

وكنتُ أسمع صوته الشريف يتلو القرآن ، فأشعر أن كل رحلة العذاب كانت تمهيدًا لهذه اللحظة.

إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن سرّ ربّه

فكلُّ فلاةِ الأرضِ أضيقُ منزلِ

وفي يومٍ من الأيام، قال لي النبي ﷺ كلماتٍ ما زالت ترنّ في أذني كأنها نُقشت في قلبي :

سلمان منا أهل البيت.

توقفتُ عندها طويلًا.

أنا الفارسي الغريب ، الذي بيع عبدًا ، وأُهين ، و جُلد ، و ذاق مرارة الوحدة... أكون من أهل بيت النبي ؟

كانت تلك الكلمة أوسع من الدنيا. فيها انصهرت الفوارق ، وسقطت العصبيات ، وارتفع الإنسان بإنسانيته.

X

كنتُ أراجع نفسي كثيرًا . من أنا ؟ أأنا ابن فارس الذي هرب من مجد أبيه ؟ أم الراهب التائه بين الأديرة ؟ أم العبد الذي سُوم على ثمنه ؟ أم الصحابي الذي نال شرف القرب من رسول الله ؟

وجدتُ أنني كلّ ذلك... وأن الله كان يصوغني كما يُصاغ السيف : طرقًا على نار ، ثم تبريدًا في ماء ، حتى يشتدّ عوده.

لقد تعلّمتُ أن الطريق إلى الحق ليس مفروشًا بالورود ، بل بالأشواك . وأن من أراد النور ، فليحتمل عتمة الطريق.

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ

وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ

وكنتُ إذا تذكرتُ السياط التي نزلت على ظهري ، ابتسمت. لأن الألم الذي كان يُراد به إذلالي ، صار وسامًا على صدري.

وإذا تذكرتُ حرماني من الخروج إلى أحد ، قلتُ في نفسي :

لعل الله أراد لي جهادًا من نوعٍ آخر: جهاد الصبر.

X

ما أكثر مواقف سلمان في نصرة الله ورسوله ﷺ . كان رأيه يوم الخندق رأيًا أنقذ المدينة . حين تكالبت الأحزاب ، اقترحتُ حفر الخندق ، وهي حيلة عرفتها في بلاد فارس.

لم يكن الإيمان عندي كلماتٍ تُقال ، بل عقلٌ يُفكّر ، وقلبٌ يُخلص، ويدٌ تعمل.

لقد علّمتني رحلتي أن الدين ليس انغلاقًا ، بل انفتاحٌ على الحكمة حيث كانت. الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

X

لو عاد بي الزمن ، لسلكتُ الطريق ذاته ، بكل ما فيه من ألمٍ وعذاب، لأن نهايته كانت نورًا.

يا من تقرأ قصتي ، لا تيأس إن طال الطريق. فربّ خطوةٍ في ظلامٍ دامس ، تقودك إلى شمسٍ لا تغيب.

فلا تحسبنَّ المجدَ تمرًا أنت آكله

لن تبلغَ المجدَ حتى تلعقَ الصبرا

كنتُ عبدًا ، فصرتُ حرًّا. كنتُ غريبًا ، فصرتُ من أهل البيت. كنتُ أبحث عن الله في النار ، فوجدته في نور ﷺ .

وهكذا علّمتني الحياة :

أن الحرية ليست فكّ القيد عن اليد ، بل فكّه عن القلب . وأن الإيمان ليس كلمةً تُقال ، بل رحلةُ روحٍ تعبر القارات والآلام ، حتى تبلغ شاطئ اليقين.

تلك كانت حكايتي... حكاية سلمان الفارسي ، الرجل الذي لم يُولد مسلمًا ، لكنه وُلد من جديد بالإسلام.